الأصوات المتوسطة وأثرها في نمو المعجم العربي

إمام محمد عبد الفتاح الإمام

أستاذ علم اللغة المساعد بكلية دار العلوم- جامعة الفيوم

ملخص البحث

موضوع هذا البحث هو "الأصوات المتوسطة وأثرها في نمو المعجم العربي"، ويراد بهذا العنوان دراسة الأصوات المتوسطة بَين الشدَّة والرخاوة عند علماء العرب القدامى والمحدثين، وهي فئة من الأصوات تتسم بمجموعة من الخصائص تؤهلها لأن تكون صنفاً مستقلاً من الأصوات يستحق البحث والدرس؛ فهي تنماز بالوقفة والرخاوة المتزامنة معها في آن واحد، وتنماز أيضاً بقوة الوضوح السمعي، وخفتها على الألسنة، وشيوعها في اللغة، وغير ذلك من الخصائص.

ونظراً لإثارة الأصوات المتوسطة لكثير من الجدل والنقاش عند علماء العرب القدامى والمحدثين على حد سواء، من حيث مفهومها ومعاييرها وتحديد عددها وتشابكها مع الحركات من جانب، وأصوات الذلاقة من جانب آخر- فقد تناول البحث دراسة هذه الفئة من الأصوات عند علماء العرب القدامى والمحدثين، فعرف بها عند كلٍّ، وبين رؤية الفريقين لها، وعرف بها عند الغربيين، وعرض سماتها الصوتية باعتبارها صنفاً خاصاً من الأصوات له ما يُمَيِّزه عن غيره، ووضح علاقتها بالحركات، وعلاقتها بالأصوات الذلقية، وقدم لها وصفاً فوناتيكيّاً؛ يوضح سماتها النطقية مخرجاً وصفة، وبين خصائصها فونولوجيّاً؛ بتناول ما يطرأ عليها من تغير في السياق، ثم بين دورها في اللغة العربية، ووضح مدى إثرائها لصيغها المعجمية من خلال ظاهرتين، هما: المخالفة، والإبدال، وقد تناول البحث ذلك في ضوء المنهجين الوصفي والمقارن.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على نبيِّ الهدى وإمام المتقين، ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، ثم أما بعد،

فموضوع هذا البحث الأصوات المتوسطة وأثرها في نمو المعجم العربي، ويراد بهذا العنوان دراسة الأصوات المتوسطة بَين الشدَّة والرخاوة عند علماء العرب القدامى والمحدثين، وهي فئة من الأصوات تنماز بالوقفة والرخاوة المتزامنة معها في آن واحد، وتنماز أيضاً بقوة الوضوح السمعي، وخفتها على الألسنة وشيوعها في اللغة، ولها أثرها البيِّن في نمو مفرداتها على اختلاف مستوياتها، إلى غير ذلك من الخصائص التي سيبينها البحث فيما بعد، وهي خصائص تؤهلها لأن تكون صنفاً مستقلاً من الأصوات يستحق البحث والدرس.

ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث الذي يتناول دراسة هذه الفئة من الأصوات عند علماء العرب القدامى والمحدثين، فيعرف بها عند كلٍّ، ويُبَيِّن رؤية الفريقين لها، ويعرض سماتها الصوتية باعتبارها صنفاً خاصاً من الأصوات له ما يُمَيِّزه، ويوضح علاقتها بالحركات، وعلاقتها بالأصوات الذلقية، ويصفها فوناتيكيّاً، ويبين خصائصها فونولوجيّاً، ثم يوضح أثرها في نمو الثروة اللفظية في اللغة العربية، ويتم تناول ذلك في ضوء المنهجين الوصفي والمقارن.

أسباب اختيار الموضوع: وهي تتمثل فيما يلي:

١- إثارة الأصوات المتوسطة مفهوماً وتحديداً وتشابكاً للاختلاف والجدل عند علماء العرب القدامى والمحدثين. ويراد بالتحديد عدد هذه الأصوات. ويراد بالتشابك الصفات المشتركة بينها وبين الحركات من ناحية، وبينها وبين أصوات الذلاقة من ناحية أخرى.

٢- ثراء مؤلفات القدامى والمحدثين بدراسة أصوات اللغة، ومنها الأصوات المتوسطة، مما يمكن الباحث من وصفها، وبيان خصائصها الفوناتيكية، وسماتها الفونولوجية.

٣- إثارة معايير التوسط للنقاش والجدل، خاصة عند المحدثين، وما ترتب على ذلك اتفاقاً أو اختلافاً أو إضافة إلى فكر القدامى.

٤- إثراء الأصوات المتوسطة لصيغ اللغة العربية وأبنيتها، مما يؤدي إلى نمو الثروة اللفظية.

أهداف الموضوع: وهي تتمثل في الإجابة على الأسئلة التالية:

١- هل يتفق ما ذكره اللغويون القدامى عن الأصوات المتوسطة مع ما ذكره المحدثون عنها؟

٢- هل هناك علاقة بين الأصوات المتوسطة والأصوات الذلقية، وبينها وبين الحركات؟

٣- ما مدى اتفاق هذه الأصوات مع المعايير التي وضعها علماء اللغة القدامى؟

٤- ما مدى أثر الأصوات المتوسطة في نمو صيغ اللغة العربية وأبنيتها؟

الدراسات السابقة على الموضوع:

ثمة بعض البحوث التي تناولت جانباً من دراسة الأصوات المتوسطة، وهذه البحوث هي:

البحث الأول: أشباه الأصوات الصائتة: للدكتور/ جاسم مرص، وهو منشور على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت): وهدف هذا البحث هو وصف المخارج والصفات لأصوات اللام والراء والنون عند القدامى، فدرسها بمعزل عن السياق (أي فوناتيكيا)، ولم يتعرض لدراستها في السياق (أي فونولوجيّاً)، ولم يوضح لنا المعايير التي قامت عليها دراسته وجعلته يستبعد أصواتاً أخرى تشترك مع هذه الثلاثة في صفاتها، مثل صوت الميم مثلا، وغير ذلك.

البحث الثاني: مفهوم البينية في الصوتيات العربية: للدكتور الطيب البكوش، منشور في مجلة دراسات لسانية، المجلد ٣، ١٩٩٧م، ص٣٠ - ٣٩، تونس.

وهدف هذا البحث هو ضبط دلالة المصطلح؛ لأن مفهوم البينية يدل على أربعة مصطلحات مختلفة تشترك في أحد أشكال التوسط، وهي: الأصوات البينية: وهي التي تقع حروفا وحركات. والحروف البينية: وهي الحروف الفروع المستحسنة والمستهجنة. والحركات البينية: وتتمثل في الإمالة والتفخيم والإشمام والروم. والهمزة البينية: وهي الهمزة المخفّفة التي لا ينتج عن تخفيفها تغيير مقطعي كمّاً وكيفاً.

البحث الثالث: الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق، رأى في المفهوم وبيان للخواص: لأستاذنا الدكتور كمال بشر، نشر بمجلة البحوث والدراسات العربية، العدد الخامس والعشرون، يوليو/ تموز ١٩٩٦، ص٤٧-٦٥. ركز فيه على تحديد مفهوم التوسط، وما يترتب على ذلك، وبين علاقته بمفهوم الذلاقة. والبحث الرابع: حروف تشبه الحركات: للمرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس، وهو منشور بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء السادس عشر، ١٩٦٣م، ص١٣-١٧.

منهج البحث وخطته:

يدرس هذا البحث الأصوات المتوسطة في اللغة العربية في ضوء المنهج الوصفي، الذي يعنى بوصف الظواهر اللغوية كما هي وتحليلها. كما يعنى أيضاً باستخدام المنهج المقارن الذي يقارن بين لغتين تنتميان إلى فصيلة واحدة، أو بين لهجتين تنتميان إلى لغة واحدة.

وقد اقتضت خطة هذا البحث أن يأتي في أربعة مباحث، يسبقها مقدمة وتتلوها خاتمة وقائمة مفصلة بأهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث، وتشتمل المقدمة على التعريف بالموضوع، وبيان أسباب اختياره، وتوضيح أهدافه، وذِكْر الدراسات السابقة على الموضوع.

والمبحث الأول بعنوان: الأصوات المتوسطة مفهومها وسماتها، يتناول التعريف بها عند القدامى والمحدثين، ثم يبين سماتها الصوتية. والمبحث الثاني بعنوان:

خصائص الأصوات المتوسطة فوناتيكيّاً، يصف هذه الأصوات، فيبين خصائصها النطقية صفة ومخرجاً. والمبحث الثالث بعنوان: سمات الأصوات المتوسطة فونولوجيّاً، يتناول ما يطرأ على هذه الأصوات من تغير في السياق. والمبحث الرابع يتناول أثر الأصوات المتوسطة في نمو الثروة اللفظية للعربية الفصحى، ويظهر ذلك بوضوحٍ في ظاهرتي المخالفة، والإبدال. ثم تأتي بعد ذلك خاتمة البحث فترصد أهم النتائج، تليها قائمة بأهم مصادر البحث ومراجعه.

الرموز المستخدمة في البحث وقيمها الصوتية(١):

أولاً: الأصوات الصامتة:

الرمز	القيمة الصوتية	الرمز	القيمة الصوتية
b	صوت شفوي ثنائي انفجاري مجهور	ṇ	صوت أسناني لثوي أنفي مجهور مفخم
m	صوت شفوي ثنائي أنفي مجهور	ń	صوت غاري(حنكي صلب) أنفي مجهور
f	صوت شفوي أسناني احتكاكي مهموس	ŋ	صوت طبقي (حنكي قصي) أنفي مجهور
b̲	صوت شفوي أسناني احتكاكي مجهور	ŋ́	صوت لهوي أنفي مجهور يقع قبل الهاء
t̲	صوت بين أسناني احتكاكي مهموس	l	صوت لثوى جانبي مجهور
d̲	صوت مما بين الأسنان احتكاكي مجهور	r	صوت لثوى لمسي أو تكراري مجهور
z̲	صوت بين أسناني احتكاكي مجهور مفخم	š	صوت لثوى حنكي احتكاكي مهموس
t	صوت أسناني لثوي انفجاري مهموس	ǧ	صوت لثوي حنكي مركب مجهور
ṭ	صوت أسناني لثوي انفجاري مهموس مفخم	g	صوت حنكي قصي انفجاري مجهور
d	صوت أسناني لثوي انفجاري مجهور	k	صوت حنكي قصي انفجاري مهموس
ḍ	صوت أسناني لثوي انفجاري مجهور مفخم	h̲	صوت حنكي قصي احتكاكي مهموس
s	صوت أسناني لثوي احتكاكي مهموس	ġ	صوت حنكي قصي احتكاكي مجهور
ṣ	صوت أسناني لثوي احتكاكي مهموس مفخم	q	صوت لهوي انفجاري مهموس
z	صوت أسناني لثوي احتكاكي مجهور	ḥ	صوت بلعومي احتكاكي مهموس
n	صوت لثوي أنفي مجهور	ʿ	صوت بلعومي احتكاكي مجهور
ň	صوت شفوي أسناني أنفي مجهور(١)	h	صوت حنجري احتكاكي مهموس
ŋ	صوت بين أسناني أنفي مجهور مرقق	ʾ	صوت حنجري انفجاري مهموس
ʾn	صوت أسناني لثوي أنفي مجهور مرقق		

(١) انظر: فقه اللغات السامية: كارل بروكلمان، ترجمة د.رمضان عبد التواب، جامعة الرياض، السعودية، ١٩٧٧م، ص٧، ومناهج البحث في اللغة: د.تمام حسان، مكتبة الأنجلو، ١٩٩٠م، ص٧- ١٢.

(٢) هذا الرمز وبعض رموز النون الأخرى من اختيار الباحث.

ثانياً: أنصاف الحركات:

w	صوت شفوي ثنائي حنكي قصي نصف حركة	y	صوت حنكي صلب نصف حركة

ثالثاً: الحركات:

a	حركة واسعة أمامية قصيرة	u	حركة ضيقة خلفية قصيرة تستدير معها الشفتان استدارة كاملة
aa	حركة واسعة أمامية طويلة	uu	حركة ضيقة خلفية طويلة تستدير معها الشفتان استدارة كاملة
a	حركة واسعة خلفية قصيرة	e	حركة نصف ضيقة أمامية قصيرة
a a	حركة واسعة خلفية طويلة	ee	حركة نصف ضيقة أمامية طويلة
i	حركة ضيقة أمامية قصيرة	o	حركة نصف ضيقة خلفية قصيرة تستدير معها الشفتان استدارة ناقصة
ii	حركة ضيقة أمامية طويلة	oo	حركة نصف ضيقة خلفية طويلة تستدير معها الشفتان استدارة ناقصة

رابعاً: المزدوج الحركي:

aw	مزدوج حركي مكون من الفتحة ونصف الحركة الواو.	ay	مزدوج حركي مكون من الفتحة ونصف الحركة الياء.

خامساً: / / رمز الفونيم؛ الوحدة الصوتية المجردة للألوفونات، والألوفون هو أحد الصور الصوتية الموقعية للفونيم وتنوعاته التي تتحقق فعليّاً في الكلام.

المبحث الأول: الأصوات المتوسطة مفهومها وسماتها

نشأة المصطلح:

يبدو أن أساس هذه التسمية "الأصوات المتوسطة" يرجع الفضل فيه إلى سيبويه (ت١٨٠هـ) الذي يُعدُّ أول من لمح خواص مجموعة من الأصوات وصفها بأنها بين الرخوة والشديدة(١)، منها العين واللام والنون والميم والراء والواو والياء والألف(٢).

وقد تابع سيبويه جل علماء العربية في هذا الوصف لهذه الأصوات، فالأنباري (ت٣٦٠هـ) سماها ما بين الشديدة والرخوة، وابن جني (ت٣٩٢هـ) سماها الحروف التي بين الشديدة والرخوة، والزمخشري (ت٥٣٨هـ) والمطرّزي (ت٦١٠هـ) ما بين الشديدة والرخوة، وابن عصفور (ت٦٦٩هـ) التي بين الشديدة والرِّخوة، ورضي الدين الإستراباذي (ت٦٨٦هـ) ما بين الشديدة والرخوة(٣). ويبدو

(١) انظر: الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، ج٤/ ص٤٣٥.

(٢) لمح الخليل قبل سيبويه سمة أخرى لبعض هذه الأصوات، خاصة الراء واللام والنون والميم، وأضاف إليها الفاء والباء، وتتمثل هذه السمة في خفة هذه الأصوات وسهولتها في النطق، وسماها الأصوات الذلقية. انظر: كتاب العين، تحقيق: د.مهدي المخزومي، ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، ج١/ص٥١

(٣) انظر على الترتيب: أسرار العربية، تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ص٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، وسر صناعة الإعراب، تحقيق د.حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٥م، ج١/ ص٦١، والمفصل في صنعة الإعراب، تحقيق: د.علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص٥٤٧، والمغرب في ترتيب المعرب، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط١، ١٩٧٩م، ج٢/ص٤٤٦، الممتع الكبير في التصريف، تحقيق د.فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦م، ص٤٢٦، شرح شافية ابن الحاجب: رضي الدين الإستراباذي، مع شرح شواهده للعالم الجليل عبد القادر البغدادي، حققهما، وضبط غريبهما، وشرح مبهمهما، محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٥ه-١٩٧٥م، ج٣/ ص٢٦٠.

أن ما دفع علماء العربية إلى تسميتها بعدُ بالأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة، أو نعتها بالأصوات البينية(١) هو هذا الوصف- بغض النظر عن مدى صحته للعين والواو والياء والألف وفقاً للدرس الصوتي الحديث، وسنناقش ذلك فيما بعد.

ويعد السيوطي (ت٩١١هـ) هو أول من ذكر مصطلح المتوسطة صراحة، فقال عند تقسيم الأصوات بحسب خصائصها: "والمتوسطة (ولينا عمر)"(٢).

أولاً: الأصوات المتوسطة عند علماء العرب القدامى:

تعريف القدامى للتوسط:

يراد بالتوسط عند علماء العرب القدامى "التوسط بَين الشدَّة والرخاوة"(٣)، ويعرف رضي الدين الإستراباذي الأصوات المتوسطة بأنها الأصوات التي "ينحصر الصوت في مواضعها عند الوقف، لكن تعرض لها أعراض توجب خروج الصوت من غير مواضعها"(٤). ولا يختلف تعريف ابن عصفور عن هذا، فالصوت المتوسط عنده هو الصوت الذي لا يجري الهواء في موضعه عند الوقف، أي عند الحبس، لكن تعرض له أعراض توجب خروج الهواء من غير موضعه(٥).

فمعنى التوسط بين الشدة والرخاوة أن هذه الأصوات تشبه الأصوات الشديدة في الغلق التام لطريق الهواء أثناء عملية الوقف أو الحبس عند مخرج الصوت، وتشبه الأصوات الرخوة في ترك منفذ لخروج الهواء حرّاً طليقاً من موضع آخر غير موضع النطق، مثل الأنف أو جانبي الفم أو وسط الفم متقطعاً بسرعة شديدة.

(١) انظر: الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق رأي في المفهوم وبيان للخواص، مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد٢٥، يوليو ١٩٩٦م، ص٥٣.

(٢) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ج٣/ ص٤٨٨.

(٣) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ٣/ ٤٩٤.

(٤) انظر: شرح شافية ابن الحاجب للرضي، ج٣/ ص٢٦٠.

(٥) انظر: الممتع الكبير في التصريف، ص٤٢٦، ٤٢٧.

ويبدو أن هذا ما عناه الأنباري بقوله: "معنى ما بين الشديدة والرخوة: أنها حروف لا مفرطة في الصلابة، ولا ظاهرة للضعف؛ بل هي في اعتدال بينهما؛ ولذلك، كانت بين الشديدة والرخوة"(١). أي أنها لا تتصف بصفة الأصوات الشديدة، وهي الغلق التام لطريق الهواء الذي يعقبه انفجار، ولا بصفة الأصوات الرخوة، وهي ترك منفذ لخروج الهواء محدثاً حفيفاً، إنما تتسم بالوقفة عند المخرج، وخروج الهواء حرّاً طليقاً دون صفير أو حفيف من موضع آخر.

وبناءً على ذلك فإن صدق هذا التفسير، فتسمية القدماء لهذه الحروف بالأصوات المتوسطة تسمية موفقة؛ لأنه يراد بها أنها ليست من الأصوات الشديدة التي تتسم بالوقفة والانفجار، وليست من الأصوات الرخوة التي تتسم بالحفيف أو الصفير، وإنما هي صنف مستقل بينهما.

معايير القدماء للتوسط: يمكن استنباط معايير التوسط عند القدماء فيما يلي:

١- مشابهة الأصوات الشديدة في لزومها مواضعها(٢). أي مشابهتها لها في الغلق التام لطريق الهواء من خلال الوقفة، دون خروجه منفجراً من الموضع نفسه، وخروج الهواء معها حرّاً طليقاً متزامناً من غير موضعه (وسط الفم)، ولعل هذا هو المراد عند القدماء بعدم جريان الصوت في موضعه عند الوقف(٣)؛ لأن الوقفة لا يتبعها انفجار.

ويرى أستاذنا الدكتور كمال بشر أن تفسير الشدة عند علماء العرب القدامى خاصة سيبويه هو الوقفة، ويعني بها وقوف الهواء وقفة ما عند النطق بالصوت

(١) أسرار العربية، ص٤٢٤

(٢) انظر: الممتع الكبير في التصريف، ص٤٢٧

(٣) لم يشر علماء العربية القدامى ومنهم سيبويه إلى المرحلة الثانية من نطق الأصوات الشديدة، وهي الانفجار بعد الوقف، فسيبويه يعرف الشديد بقوله: "هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه"، وهذه إشارة إلى المرحلة الأولى وهي الوقفة، ولم يشر إلى الانفجار الذي يعقبها. انظر: الكتاب، ج٤/ ص٤٣٤

المعين، لسببين؛ أولهما: أن ذلك يؤكد دقة سيبويه في وضعه للجيم الفصحى ضمن الأصوات الشديدة. فإذا لم يكن مراد سيبويه بالشدة الوقفة، فكيف نفسر وضعه للجيم الفصحى ضمن الأصوات الشديدة؟(١)، فهي صوت مركب مكون من وقفة متلوة باحتكاك مباشر، فكأن سيبويه أحس بهذا الجزء الأول من النطق وهو الوقفة، ولم يلتفت إلى الاحتكاك المتمم لنطق الصوت، أو لعله لم يدركه. وثانيهما: أن ذلك يوضح لنا أيضاً ما كان من الصعب علينا تذوقه من وصف سيبويه للام والنون والميم والراء بالشدة(٢).

إذن فتفسير الشدة بالوقفة يصدق على الجيم الفصحى بصورة جزئية، ويصدق على اللام والنون والميم بصورة كلية، ويصدق على الراء بصورة كلية سريعة متكررة.

٢- مشابهة الأصوات الرخوة في خروج الهواء أثناء النطق، لكنه يخرج حرّاً طليقاً دون عائق من غير موضع النطق بها. في حين يخرج هواء الأصوات الرخوة معوقاً من موضع النطق بها. يقول ابن عصفور في ذلك: "فهذه الأحرف [يريد الأصوات المتوسطة في قولهم: لم يَروِعَنَّا] لها أصوات في غير موضعها من الفم. فصارت بذلك مُشبِهة للرِّخوة، وهي تشبه الشديدة للزومها مواضعها، وليس للصوت جري في مواضعها كالرِّخوة"(٣). أي أن جريان الهواء معها وخروجه يكون حرّاً طليقاً من منافذه عند النطق بها بدلاً من خروجه منفجراً من موضعه.

(١) ربما يقول قائل: إنها الجيم القاهرية، نقول: الجيم التي كالكاف عدها سيبويه من الأصوات التي لا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر. انظر: الكتاب، ج٤ / ص٤٣٢

(٢) انظر: الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق، هامش ص٥٠، ٥١. وهذا التفسير يصحح خطأً شائعاً، فضلاً عن تأكيد دقة سيبويه وعمق نظره؛ ذلك لأن جل علماء العرب المحدثين إن لم يكونوا جميعاً يفسرون مصطلح سيبويه "شديد" بالانفجاري و"الشدة" بالانفجار، ومنهم أستاذنا د. بشر قبل ذلك، ومن ثم واجهتهم صعوبة في وضع سيبويه للجيم الفصحى مع الأصوات الشديدة. انظر: المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) الممتع الكبير في التصريف، ص٤٢٧

٣- الاتسام بالوقفة عند موضع النطق، وخروج الهواء مع بعضها متزامناً معها حرّاً طليقاً من غير موضعه في وسط الفم (من جانبيه أو من الأنف) كاللام والميم والنون، وخروج الهواء مع بعضها الآخر من موضعه في الفم (أي من وسطه)، لكنْ بسرعة شديدة وبصورة متقطعة كالراء.

٤- مماثلة الأصوات الصامتة وظيفيّاً من حيث موقعها ودورها في بنية الكلمة، لكنها في الوقت نفسه تفصح عن شَبَه ما بالحركات من حيث النطق والأداء الفعلي.

تحديد الأصوات المتوسطة عند القدامى:

يبدو أن الأصوات المتوسطة عند غالبية علماء العرب القدامى ثمانية أصوات، هي: الألف، والعين، والياء، واللام، والنون، والراء، والميم، والواو، وقد ذكرها سيبويه في قسم مَا بَيْنَ الشَّدِيدةِ وَالرِّخْوَةِ أثناء عرضه تقسيم الأصوات ووصْفها، وذكر قبلها الأصوات الشديدة والأصوات الرخوة، وبعدها الأصوات المطبقة والأصوات المنفتحة، وإن لم يصرح بذلك إلا في صوت العين(١).

وقد سار جل علماء العربية في ركاب سيبويه، فتابعوه في ذلك، غير أنهم جمعوها في ألفاظ بغية سهولة حفظها؛ فالأنباري جمع هذه الأصوات في قولهم: نوري لامع(٢) ويجمعها في اللفظ عند ابن جني "لم يرو عنا، وإن شئت قلت: لم يروعنا، وإن شئت قلت: لم يرعونا"(٣)، واقتصر الزمخشري على العبارتين الثانية والثالثة عند ابن جني(٤)، وجمعها المُطَرِّزِيّ في قولهم: لم تَروعنا(٥)،

(١) انظر: الكتاب، ج٤ / ص٤٣٥

(٢) انظر: أسرار العربية، ص٤٢٣، والواو والياء والألف هنا حركات طويلة ولا علاقة لها بالأصوات المتوسطة.

(٣) سر صناعة الإعراب ج١ / ص٦١

(٤) انظر: المفصل في صنعة الإعراب، ص٥٤٧

(٥) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، ج٢ / ص٤٤٦

ورضي الدين الإستراباذي في قولهم: لِمَ يَروعنَا[١]، وابن عصفور جمعها في قولهم: لم يَروِعَنَّا[٢]، وجمعها السيوطي في قولهم: ولينا عمر، كما سبق.

وإذا كان جل علماء العربية قد جعلوها ثمانية أصوات كما رأينا، فإن ابن الجزري (ت٨٣٣هـ) جعلها خمسة أصوات "يجمعها قولك: "لن عمر"، وأضاف بعضهم إليها: الياء والواو"[٣].

وصف الأصوات المتوسطة عند علماء اللغة القدامى:

١- الصوت الحلقي: العين:

عد سيبويه العين من الأصوات المتوسطة، فهي "بين الرخوة والشديدة، تصل إلى الترديد فيها لشَبَهها بالحاء"[٤]؛ ذلك لأن العين كما يقول الرضي: "ينحصر الصوت عند مخرجه، لكن لقربه من الحاء التي هي مهموسة ينسَلّ صوته شيئاً قليلاً، فكأنك وقفت على الحاء"[٥] ويقول ابن عصفور: "فأمَّا العين فإنك قد تصل إلى الترديد فيها كما تصل إلى ذلك في الرِّخوة، لشبهها بالحاء كأنَّ صوتَها يَنسلُّ عند الوقف إلى الحاء، فليس لصوتها الانحصار التامُّ، ولا جريُ الرِّخو"[٦]. ومعنى ذلك أن العين "لا هي تتصف بقطع الهواء كما هي الحال مع الهمزة، ولا سهولة خروج الهواء كما هي الحال مع الحاء، فهي حالة وسطى بينهما، أي يمكن أن يجري هواء النفس حال النطق بها، ولكن ليس كجريانه مع الحاء"[٧].

(١) انظر: شرح شافية ابن الحاجب للرضي، ج٣/ ص٢٦٠

(٢) انظر: الممتع الكبير في التصريف، ص٤٢٧

(٣) النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، تحقيق علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية، ج١/ ص٢٠٢

(٤) الكتاب، ج٤/ ص٤٣٥

(٥) شرح شافية ابن الحاجب للرضي، ج٣/ ص٢٦٠، ٢٦١

(٦) الممتع الكبير في التصريف، ص٤٢٧

(٧) علم الأصوات عند سيبويه وعندنا: المستشرق الألماني د.أرتور شاده، إخراج وتعليق د.صبيح التميمي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء،ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، تعليق المعلق، هامش ص٤٦.

وقد عد ابن دريد العين ضمن الأصوات الرخوة الاحتكاكية(١)، وهى نظرة توافق أحدث النظريات في القرن العشرين، فالعين صوت حلقي رخو مجهور مرقق، وهذا الوصف مؤسس على التجارب المعملية الصوتية في العصر الحديث(٢).

لكن ما السر في عد القدامى العين ضمن الأصوات المتوسطة؟ لعل سيبويه وغيره من القدماء قد عدوا صوت العين متوسطاً "لعدم وضوح الاحتكاك في نطقه وضوحاً سمعياً. ولكن الأصوات المتوسطة تشترك جميعها في خصائص، ليست موجودة في نطق العين، وأوضح هذه الخصائص، حرية مرور الهواء في المجرى الأنفي، أو المجرى الفمي، دون سد طريقه، أو عرقلة سيره، بالتضييق عند نقطة ما. وقد اتضح بصورة الأشعة، أن في نطق العين تضيقا كبيراً للحلق. وهذا ما يدعو.... إلى اعتبار صوت العين رخواً لا متوسطا"(٣).

وإذا كانت أغلب الدراسات الصوتية الحديثة عدت صوت العين رخواً(٤) فإن برجشتراسر يؤيد رأي سيبويه، فهو يرى أن العين تتميز بنطق متنوع، فأحياناً تكون متمادة، أي رخوة، وأحياناً تكون آنية، أي شديدة، وعند التدقيق فهي متوسطة، أي تمثل حالة وسطى بين الأصوات الرخوة المجهورة وبين سائر الأصوات الباقية (الشديدة مجهورة ومهموسة والرخوة مهموسة)(٥).

---

(١) انظر: جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ج١/ ص٤٦.

(٢) انظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، ص٨٢

(٣) مناهج البحث في اللغة، ص١٠٢

(٤) انظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: د.محمود السعران، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م، ص١٤٨، والأصوات اللغوية: د.محمد علي الحولي، دار الفلاح، عمّان، ١٩٩٠م، ص٩٣، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص٥٥

(٥) انظر: التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه وعلق عليه د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، ص١٥

وقد تابع الدكتور إبراهيم أنيس برجشتراسر في ذلك، ويعلِّل لعدِّ القدماء العين من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة، فيقول: "ولعل السر في هذا هو ضعف ما يسمع لها من حفيف .....، وضعف حفيفها يقربها من الميم والنون واللام، ويجعلها من هذه الأصوات التي هي أقرب إلى طبيعة أصوات اللين"(١).

ويرى الدكتور كمال بشر أن العين تعدُّ أقل الأصوات الاحتكاكية احتكاكاً؛ لاتساع مجرى هوائه نسبيّاً، إذا قورن ببقية الأصوات الاحتكاكية، فصوت العين فيه شبهة الابتعاد عن الأصوات الرخوة وانتمائه في الوقت نفسه نحو قبيل آخر، هو قبيل الأصوات التي يخرج هواؤها حرّاً بصورة أو بأخرى، وهي اللام والنون والميم والراء. ويبدو أن قلة الاحتكاك لديه مسوغ ظاهرٌ لضمها إلى الأصوات المتوسطة. وفي قوله هذا تأييد لتصنيف سيبويه، وتسويغ لنعتها بالبينية(٢).

على أن الرأي الصحيح هو أن العين صوت احتكاكي وفقاً لنتائج الدرس الصوتي الحديث، وليس صوتاً بين الشدة والرخاوة. وبناءً على ذلك فليست العين من الأصوات المتوسطة، وفقاً لمعايير سيبويه الضمنية ومن تبعه من علماء العربية القدامى.

٢- الصوت الجانبي: اللام:

من الأصوات المتوسطة اللام، ويصفه سيبويه بالمنحرف "وهو حرفٌ شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة، وهو اللام. وإن شئت مددت فيها الصوت. وليس كالرخوة؛ لأن طرف اللسان لا يتجافى [أي لا يبتعد] عن موضعه. وليس يخرج الصوت من موضع اللام، ولكن من ناحيتي مستدقّ اللسان فويق ذلك"(٣).

(١) الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠م، ص٨٨

(٢) انظر: الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق، ص٥٤

(٣) الكتاب، ج٤ / ص٤٣٥

ويبدو أن سبب امتداد الصوت في اللام أنَّ ناحيتي مُستدَقِّ اللسان تتجافيان عن موضعهما من الحنك عند النطق به، فيخرج الصوت منهما، ولا يخرج من طرف اللسان؛ لأنه لا يتجافى عن موضعه من الحنك، والدليل على ذلك أنك لو شَددْتَ جانبي موضع اللَّام لانحصر الصوت، ولم يجر البتَّة(١).

وتفسير كلام القدامى هو أن اللام صوت شديد، أي وقفي، من حيث إن الهواء عند إصداره يقف عند اللثة، ولكنه في الوقت نفسه يخرج من جانبي الفم، ومعنى هذا أن اللام تقع في إطار الأصوات الشديدة من جانب، ولكنها مع ذلك تشبه الأصوات الرخوة في جريان الهواء وخروجه حرّاً طليقاً من جانبي الفم عند النطق بها بدلاً من خروجه منفجراً من اللثة بعد الوقفة.

وبناءً على ذلك يعد صوت اللام صوتاً متوسطاً بين الشدة والرخاوة، وفقاً للمعايير التي ارتضاها علماء العربية القدامى.

٣- الصوتان الأنفيان: النون والميم:

من الأصوات المتوسطة النون والميم، فالنون "حرفٌ شديد يجري معه الصوت؛ لأن ذلك الصوت غنةٌ من الأنف، فإنما تخرجه من أنفك، واللسان لازم لموضع الحرف، لأنك لو أمسكت بأنفك لم يجر معه الصوت"(٢)، ومثله الميم. فالنون والميم "يجري معهما الصوت في الأنف؛ لأنَّ الغُنَّة صوت، ولا يجري في الفم؛ لأنَّ اللسان لازم لموضع الحرف من الفم"(٣). وهذا يعني أن الصوت فيهما "لا يخرج من موضعيهما من الفم، لكن لما كان لهما مخرجان في الفم وفي الخيشوم جرى به الصوت من الأنف دون الفم"(٤).

(١) انظر: الممتع الكبير في التصريف،ص٤٢٧، شرح شافية ابن الحاجب للرضي، ج٣/ ص٢٦١

(٢) الكتاب، ج٤/ ص٤٣٥

(٣) الممتع الكبير في التصريف، ص٤٢٧

(٤) شرح شافية ابن الحاجب للرضي، ج٣/ ص٢٦١

وتفسير كلام القدامى هو أن النون والميم صوتان شديدان، أي وقفيان، من حيث إن الهواء عند إصدارهما يقف عند نقطة النطق وهي اللثة والشفتان على الترتيب، ولكن هذا الهواء في الوقت نفسه يخرج من الأنف، ومعنى هذا أن النون والميم تقعان في إطار الأصوات الشديدة من جانب، ولكنهما مع ذلك تشبهان الأصوات الرخوة في جريان الهواء وخروجه حرّاً طليقاً من الأنف عند النطق بهما بدلاً من خروجه منفجراً من اللثة والشفتين بعد الوقفة، كما هو الحال في بقية الأصوات الشديدة. وبناءً على ذلك يعد الصوتان الأنفيان: النون والميم من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة، وفقاً للمعايير التي ارتضاها علماء العربية القدامى.

٤- الصوت المكرر: الراء:

من الأصوات المتوسطة الصوت "المكرر، وهو حرفٌ شديد يجري فيه الصوت، لتكريره وانحرافه إلى اللام، فتجافى للصوت كالرخوة، ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه. وهو الراء"(١).

ويبدو من هذا أن الراء المكررة التي قد يتجافى (أي يبتعد) فيها طرف اللسان عن موضعه بعض تجافٍ مرات عديدة؛ ليخرج الهواء بحرية نسبية، هي التي يجري معها الصوت لا الراء اللمسية، وقد لاحظ ذلك أيضاً الرضي، فقال: "وأما الراء فلم يجر الصوت في ابتداء النطق به، لكنه جرى شيئاً لانحرافه وميله إلى اللام .... ، فإذا تكرر جرى الصوت معه في أثناء التكرر"(٢).

وتفسير كلام القدامى هو أن الراء المكررة صوت شديد، أي وقفي، من حيث إن الهواء عند إصداره يقف عند نقطة النطق وهي اللثة العليا، ولكن هذا الهواء في الوقت نفسه يخرج من وسط الفم متكرراً متقطعاً بسرعة شديدة، ومعنى هذا أن

(١) الكتاب، ج٤/ ص٤٣٥، وانظر: الممتع الكبير في التصريف، ص٤٢٧

(٢) شرح شافية ابن الحاجب للرضي، ج٣/ ص ٢٦١

الراء تقع في إطار الأصوات الشديدة من جانب، ولكنها مع ذلك تشبه الأصوات الرخوة في جريان الهواء بحُرِّية نسبية وخروجه متقطعاً بسرعة شديدة من وسط الفم عند النطق بها بدلاً من خروجه منفجراً من اللثة بعد الوقفة دفعة واحدة، كما هو الحال في بقية الأصوات الشديدة. في حين يخرج هواء الأصوات الرخوة متعسراً من منافذ ضيقة بحيث يحتك بأعضاء النطق، فيُحدث ذلك حفيفاً مسموعاً.

وعلى الرغم من أن الراء صوت شديد وقفي فإن تكرار خروج هوائه وقطع هذا الخروج المتكرر للوقفة يقربه ـ نوع قرب ـ من الأصوات الاحتكاكية، وهذا هو معنى قول سيبويه: فتجافى للصوت كالرخوة. وهذه الشبهة قد أوقعت ابن الجزري في التردد والاضطراب في وصف الراء ونسبتها إلى طائفة معينة من الأصوات؛ فتارة يعدها صوتاً متوسطاً، فيقول: والأصوات "المتوسطة بين الشدة والرخاوة خمسة يجمعها قولك: لن عمر"(١)، وتارة يعدها صوتاً رخواً خالصاً، فيقول: والأصوات "المجهورة الرخوة خمسة: الغين، والضاد، والظاء، والذال المعجمات، والراء"(٢).

على أن ابن الجزري قد ساوره الشك في حسبان الراء صوتاً رخواً، فعاد إلى رأي سيبويه وغيره مرة أخرى، ذلك الرأي الذي يشبِّه فيه خروج هواء الراء بهواء الأصوات الرخوة، فقال: "قال سيبويه وغيره هو حرف شديد جرى فيه الصوت لتكرره وانحرافه إلى اللام فصار كالرخوة ولو لم يكرر لم يجر فيه الصوت"(٣)، ثم أتبع ذلك بالنص على القول الصحيح بتسجيل رأي المحققين، فقال: "وقال المحققون: هو [يريد الراء] بين الشدة والرخاوة وظاهر كلام سيبويه أن التكرير صفة ذاتية في الراء"(٤).

(١) النشر في القراءات العشر، ج١ / ص٢٠٢.

(٢) النشر في القراءات العشر، ج١ / ص٢٠٢.

(٣) النشر في القراءات العشر، ج١ / ص٢٠٤.

(٤) النشر في القراءات العشر، ج١ / ص٢٠٤.

إذن فصوت الراء صوت شديد، أي وقفي، وهو في الوقت نفسه يشبه الأصوات الرخوة في خروج الهواء بحرية نسبية، أي بخروجه متكرراً متقطعاً بسرعة شديدة من وسط الفم عند نقطة النطق وهي اللثة. وبناءً على ذلك يعد صوت الراء صوتاً متوسطاً بين الشدة والرخاوة، وفقاً للمعايير التي ارتضاها علماء العربية القدامى.

٥- الأصوات اللينة والهاوية: الواو والياء والألف:

من الأصوات المتوسطة في رأي القدامى أيضاً الأصوات "اللينة، وهي الواو والياء، لأن مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما، كقولك: وَأىٌ، والواو، وإن شئت أجريت الصوت ومددت. ومنها الهاوي وهو حرفٌ اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو، لأنك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قِبَل الحنك"(١). "وليس في الألف شيء من ذلك"(٢).

ومعنى اتساع مخرجهما لهواء الصوت، أي أن مخرجهما يتسع لهواء نوعين من الأصوات، فبإمكانه أن يتسع إلى الدرجة التي يحدث معها احتكاك مسموع للهواء، أكثر من اتساعه مع الأصوات الرخوة، فتخرج الواو والياء غير المديتين. وبإمكانه أن يتسع المخرج إلى الدرجة التي لا يحدث معها احتكاك، ويجري الصوت من وسط الفم دون أي احتكاك، فتخرج الواو والياء المديتين. وتعبير سيبويه بـ(قد) يشير إلى حال تكون فيها الواو والياء غير مديتين، على الرغم من إغفاله دور اللسان في إخراج الواو، وإشارته صراحة إلى وظيفته في إخراج الياء.

ولعل ذلك ما يريده الرضي أيضاً بقوله: "الواو والياء والألف لا يجري الصوت معها كثيراً، لكن لما كانت مخارجها تتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرها من المجهورة كان الصوت معها يكثر فيجرى منه شيء، واتساع مخرج الألف لهواء

(١) الكتاب، ج٤ /ص٤٣٥، ٤٣٦، وانظر: الممتع الكبير في التصريف، ص٤٢٧

(٢) الممتع الكبير في التصريف، ص٤٢٧

صوته أكثر من اتساع مخرجي الواو والياء لهواء صوتهما، فلذلك سمي الهاوي: أي ذات الهواء"(١). وإنما كان الاتساع للألف أكثر؛ لأنه لا يحدث فيه ضم للشفتين، كما في الواو فيضيق المخرج، ولا يتم رفع اللسان تجاه الحنك كما في الياء، فالألف لا تعمل لها شيئاً من هذا، بل تفرج المخرج.

ويقرر ابن عصفور أن هذه الأحرف الثلاثة (الواو والياء والألف) متوسطة؛ لأن لها أصواتاً "في غير موضعها من الفم، فصارت بذلك مُشبِهة للرِّخوة، وهي تشبه الشديدة للزومها مواضعها، وليس للصوت جري في مواضعها كالرِّخوة"(٢). وما ذكره ابن عصفور هنا جانبه الصواب، لأن الواو والياء –سواء أكانتا مديتين أم غير مديتين– والألف ليست متوسطة بين الشدة والرخاوة.

فالواو والياء بنوعيهما لا يتحقق فيهما معيار سيبويه، ذلك المعيار الذي "يتمثل في اتسام نطق الصوت المتوسط بالشدة (الوقفة) وبالرخاوة المتزامنة، ممثلة هذه الرخاوة في مرور الهواء بصورة من الصور من منافذ معينة"(٣).

على أن العيب الكتابي في الإملاء العربي الذي يعطي رمزاً كتابياً واحداً لصوتين مختلفين، مثل رمز الواو ورمز الياء الذي يشير كلاهما إلى صوتين؛ صوت غير مدي يمثل نصف صامت أو نصف حركة، وصوت مدي يمثل حركة طويلة– أوقع علماء العرب القدامى ومن تابعهم من المحدثين في الخلط والاضطراب أحياناً؛ لأن هذا العيب الكتابي كان سبباً أحياناً في أن يخدعهم الرسم الكتابي في أثناء محاولاتهم توصيف بعض التغيرات الصوتية التي تطرأ على بعض الألفاظ أو تعليلها.

(١) شرح شافية ابن الحاجب للرضي، ج٣/ ص٢٦١

(٢) الممتع الكبير في التصريف، ص٤٢٧

(٣) الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق، ص٥٦

وهذا العيب هو الذي جعل كلاًّ من الواو والياء في العبارات التي جمعها علماء العرب القدامى للأصوات المتوسطة تتردد بين النوعين؛ غير المدي والمدي، فعبارة الأنباري: نوري لامع، تنتمي الواو والياء فيها إلى مجال المدية، وعبارة ابن جني: لم يروعنا جاء رمز الواو فيها محتملا للنوعين في آن واحد، المدي وغير المدي، فهي تحتمل: لم يَرُوعُنا، وتحتمل لم يُرَوِّعنا. وتنتمي الواو والياء في عبارة السيوطي: ولينا عمر إلى مجال غير المدية (y،w)، أي أن خروج الهواء عند نطقهما في هذه الحالة الأخيرة فيه شبهة الاقتراب من هواء بعض الأصوات الرخوة، ولا علاقة لهما بالشدة (الوقفة) على الإطلاق.

لكن ما يقرب الواو والياء غير المدية من الأصوات المتوسطة هو قوة الوضوح السمعي فيهما، التي تتضح في خروج هوائهما عند النطق بهما، وهذه الظاهرة دعت بعض الباحثين إلى سمتها بالأصوات الرنانة أو الرنينيات zesonants وهي اللام والنون والميم والراء والواو والياء[1].

وإذا استعرضنا آراء علماء اللغة المحدثين في الواو والياء، نجد أن الدكتور رمضان عبد التواب يرى أن الواو والياء تكونان حركتين طويلتين خالصتين إذا خرجتا من الفم دون أن يحدث للهواء أي نوع من الحفيف، وتكونان نصفي حركة[2] إذا حدث نوع من الحفيف للهواء المار[3].

فأين اعتراض مجرى الهواء في الفم، حتى تكون الوُقَيْفَة مع تسرب الهواء من

(١) انظر: الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق، ص٥٧

(٢) يرى د. كمال بشر جواز تسميتها بأنصاف حركات أو أنصاف صوامت، ولكنه يفضل المصطلح الأول. انظر: الأصوات العربية، مكتبة الشاب، القاهرة، ص١٣٣. ويطلق عليها د.تمام حسان نصف علة. انظر: مناهج البحث في اللغة، ص١٠٧. أما د.عبد الصبور شاهين، فيطلق عليها شبه حركة أو شبه صامت. انظر: علم الأصوات: مالمبرج، تعريب ودراسة عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٨٥م،ص١٢٢

(٣) انظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص٩٢، ٩٣

مكان آخر، وهي الشرط للقول بأنها متوسطة بين الشدة والرخاوة؟

فواو اللين (غير المدية w) صوت شفوي ثنائي، حنكي قصِيّ، نصف صامت أو نصف حركة، مجهور. ويبدأ تكونها من موضع الحركة (u)، ثم ينتقل اللسان بسرعة إلى موضع حركة أخرى، فمخرجها من أقصى اللسان حين يقترب من أقصى الحنك مع استدارة الشفتين استدارة كاملة(١).

وياء اللين (غير المدية y) صوت حنكي صلب، نصف صامت أو نصف حركة، مجهور. ويبدأ تكونها من موضع الحركة (i)، ثم ينتقل اللسان بسرعة إلى موضع حركة أخرى، فمخرجها من أوسط اللسان الذي يتجه نحو وسط الحنك، وتنفرج الشفتان ويسد الطريق إلى الأنف(٢)، ويتذبذب الوتران الصوتيان. وهذا الانتقال من موضع الكسرة إلى موضع حركة أخرى في نطق الياء هو ما دعا د. إبراهيم أنيس إلى وصفها بأنها صوت انتقالي أو انزلاقي(٣).

على أننا نخالف الدكتور أنيس في أن الواو (w) والياء (y) تَنتُجان دائماً عن انزلاق من موضع الضمة (u)- في حالة الصوت الأول- وموضع الكسرة (i)- في حالة الصوت الآخر- إلى موضع حركة أخرى؛ لأنه ربما يكون القول بحدوث مثل هذا الانزلاق ممكناً في مواضع من مثل: (وِصال uisaal) و(يَوْم iaum)، غير أن قبول القول بذلك غير وارد في كلمة من مثل (وُلِدَ wulida)؛ فليس هناك انزلاق بين حركتين مختلفتين. فلو تصورنا الصوت الأول حركة هي الضمة (u)، لكانت هذه الضمة متلوّة بضمة أخرى. وهذا يعني تتالي ضمتين تشكلان عند النطق المتصل ضمة طويلة (uu). وليس هذا هو واقع نطق مثل هذه الكلمة. فهناك- في

(١) انظر: الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٤٣، ومناهج البحث في اللغة، ص١٠٧، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص٩٣، والأصوات العربية، ص١٣٣

(٢) انظر: الأصوات العربية، ص٣٣.

(٣) انظر: الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٤٣

الواقع- (واو) غير مدية، وهي غير ناتجة عن الانزلاق، وهناك كذلك (ياءٌ) غير مدية، يمكن أن تكون أيضاً غير ناتجة عن الانزلاق.

ويرى د. كمال بشر أن هذا التفريق القائم على الأساس النطقي غير واضح، بل يتضمن شيئاً من التكلف والصنعة، وينبغي التفريق بين الحالتين في رأيه على أساس الوظيفة اللغوية، فهما إما حركتان خالصتان إذا ضُم ما قبل الواو وكُسر ما قبل الياء، وإما صوتان صامتان أو بعبارة أدق نصفا حركتين؛ وذلك حين وقوع أي منهما متلوة بحركة أو ساكنة بعد فتح(١).

وهذا الأساس قد سبقه إليه د.تمام حسان، فهو يرى أنه لا فرق من الناحية الأصواتية المحضة بين الواو وبين الضمة، ولا بين الياء وبين الكسرة، ولكن الفرق بينهما، "يرجع إلى التشكيل والتطريز اللغوي؛ فصوت الواو يأتي بعد علة وقبلها، ولا تأتي الضمة كذلك مثل: واحد، تعويذ، آوُوه. وصوت الياء يأتي سابقاً ولاحقا للعلل ولا كذلك الكسرة، مثال ذلك: يأتي، تعيين، أحيوه"(٢).

وبناءً على ذلك، ليست الواو ولا الياء من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة وفقاً لمعيار علماء اللغة القدامى، وإن كان هذا لا ينفي توسطهما بين الصوامت والحركات.

وأما الألف فهي فتحة طويلة لا غير، وهي تنتمي إلى الحركات، والكلام هنا منصب على الأصوات الصامتة أو الحروف بعبارتهم التي تعد قسيماً مناظراً للحركات، لا جزءاً منها ولا منتمية إليها، وبذلك تخرج الألف من الأصوات المتوسطة.

فإذا تأملنا كيف تنطق الفتحة تبين لنا مدى صدق ذلك، فعند النطق بالفتحة الطويلة يكون اللسان مستوياً في قاع الفم، مع ارتفاع طفيف في وسطه تجاه الحنك

(١) انظر: الأصوات العربية، ص١٣٤، ١٣٥

(٢) انظر: مناهج البحث في اللغة، ص١٠٧، ١٠٨

وأقصاه (الحنك الصلب والحنك اللين)، وبمرور الهواء الخارج من الرئتين يهتز الوتران الصوتيان[١]. ويكون شكل الشفتين معها محايداً أو طبيعياً neutral[٢]. لكن مع مراعاة أن زمن النطق بها يساوى زمن النطق بفتحتين قصيرتين. فالفتحة الطويلة حركة أمامية متسعة طويلة غير مستديرة.

وبناءً على ذلك، ليست الألف أيضاً من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة وفقاً لمعيار القدامى؛ لأن الهواء الخارج من وسط الفم لا يعترض طريقه شيء على الإطلاق.

ويتضح من هذا العرض أن الأصوات المتوسطة التي تحققت في نطقها المعايير الضمنية التي أشار إليها سيبويه أربعة أصوات، هي: اللام والنون والميم والراء، بعد استبعاد العين والواو الياء والألف منها؛ لعدم انطباق معايير الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة عليها.

ولعل قرب هذه الأصوات الأربعة الشديدة من الأصوات الرخوة في خاصة مطلق مرور الهواء، لا انفجاره بعد الوقفة، لعل هذا هو ما دفع علماء العربية بعد سيبويه إلى تسميتها بالأصوات البينية أو الأصوات المتوسطة.

ثانياً: الأصوات المتوسطة عند علماء العرب المحدثين:

عرف د.عبد الصبور شاهين التوسط بأنه خروج الصوت دون انفجار أو احتكاك عند المخرج. وهو يشمل أصواتاً أربعة، هي: اللام والنون والميم والراء[٣]. ويطلق على هذه المجموعة وصف المائعة (liquids)[٤]، وإذا كان بعض القدماء قد ضم

(١) انظر: الأصوات العربية، ص١٥٢، ودراسة الصوت اللغوي: د.أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٨هـ-١٩٨٧م، ص٣١٨.

(2) See: An outline of English phonetics, Daniel Jones, University Press, Cambridge, Eighth Printing 1987, p. 74.

(٣) انظر: علم الأصوات: مالمبرج، دراسة المعرب، ص١١٣.

(٤) انظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص٢٢٦، وبحوث ومقالات في اللغة: د.رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط٣، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ص٣٦، واللغة وعلم اللغة: جون ليونز، =

إليها صوت العين، فإن ذلك موضع نقد للمحدثين؛ لأن صوت العين عبارة عن احتكاك الهواء بأقصى الحلق، فهو صوت رخو، وقد ضم د.عبد الصبور إليها في مكان آخر صوتي الواو والياء باعتبارهما شبه حركة أو شبه صامت(١)، وإن كنا نخالفه في ذلك كما سنوضح بعد قليل.

ولا يختلف رأي د.سعد مصلوح عن ذلك في ضم الواو والياء إليها، بيد أنه سماها أصواتاً "انطلاقية غير محتكة"، وهي تضم الأصوات الأنفية والترددية والجانبية ونصفي الحركة(٢).

ويعرف الدكتور تمام حسان الصوت المتوسط، بأنه الصوت الذي "يمر الهواء بمجراه دون انحباس، أو احتكاك من أي نوع، إما؛ لأن مجراه في الفم خال من المعوقات، كما في صوتي الواو والياء، وإما؛ لأن مجراه في الفم يتجنب المرور بنقطة السد أو التضييق، كما في صوت اللام، وإما؛ لأن هذا التضييق غير ذي استقرار على حاله، كما في صوت الراء، أو؛ لأن الهواء لا يمر بالفم وإنما يمر بالأنف، كما في أصواتي الميم والنون، وكل هذه الطائفة من الأصوات تسمى الأصوات المتوسطة؛ لأنها ليست شديدة ولا رخوة"(٣).

ويتضح من ذلك أن الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة عند الدكتور تمام حسان ستة أصوات، هي: الواو والياء، واللام، والنون والميم، والراء؛ لأنها ليست شديدة وليست رخوة.

على أننا نخالف الدكتور تمام حسان -وكذلك دكتور عبد الصبور شاهين

= ترجمة مصطفى التوني، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٧م، ص١١٧، وعلم الأصوات: مالمبرج، دراسة المعرب، ص١٢١. ويرى أستاذنا د. كمال بشر خطأ هذه الترجمة؛ والأولى ترجمتها بالأصوات السلسة أو اللينة. انظر: الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق، ص٥٩

(١) انظر: علم الأصوات: مالمبرج، دراسة المعرب، ص١١٣، ١١٤، ١٢١.

(٢) انظر: دراسة السمع والكلام، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٢٢٢

(٣) مناهج البحث في اللغة، ص٨٧

والدكتور سعد مصلوح- في اعتبار الواو والياء من الأصوات المتوسطة؛ واعتبار العلة في ذلك أن مجرى الهواء في الفم معهما خالٍ من المعوقات. فإن كان يقصد خلو مجرى الهواء في وسط الفم من المعوقات الكلية والجزئية، فالواو والياء في هذه الحالة حركتان طويلتان، وليستا من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة. أما الواو والياء باعتبارهما نصفي حركة فيحدث لهما تضييق عند نقطة المخرج، وإن كان لهما شبه بالحركات في الجهر وفي خروج الهواء من وسط الفم.

وهذا يتفق مع ما يراه د. كمال بشر من أن الأصوات المتوسطة التي تحققت في نطقها المعايير الضمنية التي أشار إليها سيبويه هي باتفاق الجميع أربعة: اللام والنون والميم والراء، بعد نزع العين والواو الياء والألف من هذا القبيل ، لانتفاء بعض الخواص التي تنتظمها هذه المعايير(١).

وإذا كان علماء العربية يقصدون بتوسط هذه الأصوات توسطها بين الشديدة (الوقفات) والرخوة (الاحتكاكيات)، فإن الدكتور كمال بشر له رأي آخر في تفسير مصطلح التوسط، وإن كان يتفق معهم في جملة ما قرروه بالنسبة للخواص المميزة لهذه الأصوات (اللام والميم والنون والراء). فهو يرى أن هذه الخواص تسوغ تفسير التوسط بواحد من اثنين : الأول: التوسط بين الشدة والرخاوة، وحسبان هذه الأصوات متوسطة يعني أنها تشكل قسماً ثالثاً من الأصوات الصامتة مستقلاً عن الشديدة والرخوة كلتيهما؛ لأن الخواص النطقية لها تمثل بنية نطقية متكاملة تميزها من غيرها، وتحيلها ضرباً مستقلاً بنفسه. والثاني: التوسط بين الصوامت جميعاً (الشديدة والرخوة) والحركات، وحسبان هذه أصوات متوسطة على هذا الأساس، لا على التوسط بين الشديدة الرخوة(٢).

(١) انظر: الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق، ص٥٧

(٢) انظر: الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق، ص٥٨

ويرى البحث أنه يمكن تفسير التوسط بأحد هذين الرأيين: التوسط بين الشدة والرخاوة باعتباره قسماً مستقلاً مناظراً لكل من الأصوات الشديدة والرخوة، أو التوسط بين الصوامت والحركات.

ثالثاً: الأصوات المتوسطة عند علماء الغرب المحدثين:

يراد بها الأصوات التي تجمع بين الاحتكاك والانفجار، وهي ما يطلق عليها الأصوات المركبة affricates، فقد جعل فندريس هذا النوع من الأصوات متوسطاً بين الانفجاري والاحتكاكي، فيقول: "وتوجد سلسلة من الأصوات المتوسطة بين الانفجارية والاحتكاكية، وهي ما تسمى شبه الانفجارية، أو بعبارة أوضح: الانفجارية الاحتكاكية، وتتميز بالإغلاق الذي لا يستمر إحكامه، وفيها كما في الانفجارية حبس، ولكن هذا الحبس تتبعه حركة خفيفة من الفتح، بحال يجعل الانفجاري ينتهي بالاحتكاكي، فالانفجاري الاحتكاكي هو انفجاري فاشل"(١).

ويقول ماريوباي: "أما الأصوات المركبة affricates فهي أصوات لا تنتج عن طريق تغيير المخرج، وإنما تعديل طريقة النطق، فإذا حدث أن كان الانغلاق المتلو بانطلاق، الموجود في نطق ال (t)- حدث أن كان متبوعاً بالصوت الاستمراري الاحتكاكي، فإن النتيجة ستكون ch الموجودة في church. ونفس الشيء مع ال (d) إذا أتبعت بالصوت الاحتكاكي المجهور (s) في: measure حيث يكون الناتج صوت ال (J) الموجود في (jet)(٢). ومن الممكن بنفس الطريقة إنتاج

(١) اللغة، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٠م، ص٥٠.

(٢) لا بد من الإشارة هنا إلى أنه ليس هناك في الأصل صوت (d) ولا صوت (s) احتكاكية مجهورة في كلمة measure، وما صوت الجيم الناتجة إلا بسبب من تغوير الـ (s) بتقريب مخرجها اللثوي الأسناني في الأصل من المخرج الغاري للياء المجهورة التي يمثلها هنا رمز (u). ومن هنا كان من غير الدقيق تمثيل ماريو باي بلفظ measure لصوت الـ (d) المتبوعة بصوت الـ (s) الاحتكاكي المجهور. وتجدر الإشارة إلى "أن عدداً كبيراً من علماء الأصوات يرفضون الاعتراف بالطبيعة المركبة للأصوات المرموز إليها في الإنجليزية بـch أو j ويفضلون أن ينظروا إليها باعتبارها المقابل الانفجاري للغاري الاحتكاكي المرموز إليه=

أصوات مركبة مثل ts و dz، اللذين تمثلهما بعض الأبجديات (وبخاصة الألمانية والإيطالية) برمز واحد هو (z)، وذلك عن طريق الجمع بين أسناني انفجاري، وصفيري sibilant ضيق (احتكاكي) spirant من غير تعديل في مخرج الصوت"(١).

ويتضح من جملة هذا أن الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة عند المحدثين في الغرب هي الأصوات المركبة affricates، التي تبدأ انفجارية وتنتهي احتكاكية مثل صوت الجيم في اللغة العربية الفصحى. وهذه تغاير بلا شك الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة عند علماء العرب القدامى والمحدثين، إذ اتفقوا على أصوات أربعة متوسطة بين الشدة والرخاوة، وهي اللام، والنون والميم، والراء، وانفرد القدماء بزيادة الواو والياء والألف، ووافقهم د.عبد الصبور شاهين ود.تمام حسان ود.سعد مصلوح في الواو والياء دون الألف.

خصائص الأصوات المتوسطة:

لا شك أن الأصوات المتوسطة وهي اللام والنون والميم والراء تنتمي إلى الصوامت بحكم المعايير الأساسية للتصنيف، لكنها في الوقت نفسه تبدي شبهاً كبيراً بالحركات سواء أكان ذلك من الناحية النطقية أم السمعية. وتتضح لنا خصائص هذه الأصوات فيما يلي:

١- حرية مرور الهواء في المجرى الأنفي، أو المجرى الفمي:

تتميز الأصوات المتوسطة بحرية مرور الهواء في المجرى الأنفي، أو المجرى الفمي، دون سد طريقه، أو عرقلة سيره، بالتضييق عند نقطة ما(٢). فأصوات "اللام والميم

= في الإنجليزية بsh وs في measure". أسس علم اللغة، ترجمة وتعليق أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط٨، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م،ص٨٥.

(١) أسس علم اللغة،ص٨٤، ٨٥

(٢) مناهج البحث في اللغة، ص١٠٢

والنون تشترك مع الحركات في أهم خاصة من خواصها النطقية، وهي حرية مرور الهواء، دون أي عائق أو مانع. والفرق بينهما هو أن هواء الحركات يخرج من [وسط] الفم، في حين يخرج هواء اللام من أحد جانبي الفم أو كليهما، وهواء الميم والنون يخرج من الأنف. أما هواء الراء- وإن كان يخرج من [وسط] الفم متقطعاً- فما يزال يشبه هواء الحركات في حرية الخروج، كلما انفصل طرف اللسان عن نقطة النطق"(١)، وهي اللثة.

٢- التقارب في الصفات والمخارج، فاللام والراء والنون متجانسة مخرجاً؛ لأنها لثوية، وهذه الأصوات مضافاً إليها الميم متوسطة بين الشدة والرخاوة، وكلها مجهورة.

٣- قوة الوضوح السمعي:

تشبه الأصوات المتوسطة (اللام والراء والنون والميم) الحركات في خاصة سمعية، وهي قوة الوضوح السمعي sonority، وذلك نتيجة طبيعية لحرية مرور الهواء عند نطق هذه الأصوات جميعاً؛ إما من جانبي اللسان، وإما من وسط الفم متقطعاً ومتكرراً، وإما من الأنف. وتشكل هذه الأصوات قسماً منفرداً من الأصوات الصامتة، ولهذا يطلق عليها أشباه الحركات (vowel like consonants)(٢).

ولا تقتصر ظاهرة الوضوح السمعي على هذه الأصوات وإنما تتعداها إلى أصوات أخرى، نحو: الباء والفاء، وهما بقية أصوات الذلاقة، والياء والواو باعتبارهما أنصاف حركات، وهذه الخاصية لهذه الأصوات تجعلها كثيرة الاستعمال، مألوفة للآذان، وينطبق ذلك على أصوات الذلاقة في "قولهم: مر بنفل، وكذلك أصوات الرنين أو ما تسمى بأشباه الحركات، ويجمعها علماء العربية [القدامى] في قولهم:

(١) انظر: الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق، ص٥٨، ٥٩

(٢) دراسات في علم اللغة: د. كمال بشر، دار غريب، ص٢٤٣، ٢٤٤، وانظر: أصوات اللغة: د. عبدالرحمن أيوب، ط٢، مطبعة الكيلاني، ١٩٦٨م، ص١٣٦

"لن عمر"، أو "لم يروعنا" في رأي بعضهم، وفي استطاعتنا استغلال هذه الخاصة لتلك الأصوات باختيار الكلمات التي تنتظمها"(١).

٤- الاشتراك في خاصية الجهر، فاللام والميم والنون والراء مجهورة مثل الحركات.

٥- شيوع هذه الأصوات وكثرة دورانها في اللغة وتوظيفها شعراً ونثراً:

ذكر الخليل كثرة ورود هذه الأصوات في أبنية الكلام، فيقول: "فلمَّا ذَلَقَتِ الحُروفُ السِّتَّةُ [يريد اللام والنون والراء والميم والباء والفاء]، ومَذَلَ بِهِنَّ اللِّسان وسَهُلَتْ عليه في المَنْطِقِ كَثُرَتْ في أَبنِيةِ الكلام"(٢)، خاصة الأبنية ذات الأصل الثلاثي. ويؤكد هذه الحقيقة التي ذكرها الخليل وتناقلها اللغويون من بعده الإحصاء المعجمي الذي أجراه الدكتور علي حلمي موسى على الجذور الثلاثية للكلمات العربية، كما وردت في معجم الصحاح، فقد توصل إلى أن أكثر الأصوات العربية وروداً في هذه الجذور هي الأصوات التالية على الترتيب: الراء، والميم، والنون، اللام، الباء، العين، الفاء، ثم الدال، والقاف، والسين(٣). وهكذا نرى من خلال هذا الإحصاء المعجمي أن أصوات الذلاقة ومنها الأصوات المتوسطة قد فازت بالمرتبة الأولى من حيث نسبة ورودها في الاستعمال، وفي بناء الأصول الثلاثية.

ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أيضاً أن أكثر الأصوات شيوعاً وتوظيفاً في الروى هي الراء واللام والميم والنون والباء على الترتيب. واختيار هذه الأصوات في الروى دليل على كثرة ورودها في أواخر الكلمات، وامتيازها بقوة الإسماع الذي يزيد من روعة موسيقى الشعر ونغمات الإنشاد(٤).

---

(١) دراسات في علم اللغة، ص٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) كتاب العين، ج١/ ص٥٢.

(٣) انظر: دراسة إحصائية لجذور مفردات اللغة العربية (الجذور الثلاثية): د.علي حلمي موسى، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٧١م، جدول رقم ٧، ص٣٥

(٤) انظر: موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٥٢م، ص٢٤٦، ٢٥٤

ويبدو من الإحصاءات السياقية التي ذكرها الفيروزآبادى (ت ٨١٧هـ) للحروف في القرآن الكريم أن اللام هي أكثر الأصوات شيوعاً في القرآن الكريم، حيث بلغ عدد مرات ورودها ثلاثة وثلاثين ألفاً وخمسمائة واثنتين وعشرين لاماً (٣٣٥٢٢)، هذا بخلاف اللاءات التي بلغت أربعة آلاف وتسعاً وتسعين لاءً. (٤٠٩٩)، فيكون مجموع اللامات في القرآن الكريم (٣٧٦٢١)، تليها النون التي بلغت ستة وعشرين ألفاً وخمسمائة وخمساً وعشرين (٢٦٥٢٥)، تليها الميم التي بلغت ستة وعشرين ألفاً ومائة وخمساً وعشرين (٢٦١٢٥)، تليها بالنظر إلى الأصوات المتوسطة الراء، حيث بلغت اثنتي عشرة ألْفا ومائتين وستاً وأربعين (١٢٢٤٦)[١]. وهذا يدل على أن هذه الأصوات تعد أكثر الأصوات توظيفاً وشيوعاً في اللغة العربية الفصحى.

ويؤكد ذلك الدراسات اللغوية الحديثة التي اعتمدت في إحصائها على المدونات السياقية؛ فقد ذكر الدكتور محمد علي الخولي أن من أكثر الأصوات توظيفاً في اللغة العربية الفصحى نثراً، أصوات اللام والنون والميم والراء، والدليل على ذلك الإحصاء الذي قام به، وأثبت من خلاله شيوع هذه الأصوات وفقاً للترتيب التنازلي، فاحتلت اللام المرتبة الأولى من حيث كثرة الشيوع، تليها النون، ثم الميم، وآخرها الراء[٢].

ويتفق ما ذكره الفيروزآبادي والدكتور محمد علي الخولي مع ترتيب ابن منظور لشيوع الأصوات، فقد جاءت أصوات اللام والميم والنون ضمن الأصوات كثيرة التردد، وجاءت الراء عنده في بداية الأصوات متوسطة التردد[٣]، في حين جاءت كثيرة التردد عند الدكتور الخولي.

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ج١ / ص٥٦٣-٥٦٦

(٢) انظر: الأصوات اللغوية: د.محمد علي الخولي، ص١١٧، وانظر: ص١٢٥، ١٣٢

(٣) انظر: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ-١٩٩٥م، مج١ /ص١٤

وإذا أخذنا ترتيب ابن منظور وفقاً للترتيب التنازلي، سيكون ترتيب هذه الأصوات هو اللام والميم والنون والراء، وهذا الترتيب يتفق مع الترتيب التنازلي عند الفيروزآبادي والدكتور الخولي، بيد أن صوت النون عندهما جاء مقدماً في الشيوع على الميم، عكس ما ورد عند ابن منظور.

٦- سهولة النطق وخفة الأداء:

تشكل الأصوات المتوسطة اللام والميم والنون والراء مع الفاء والباء نمطاً خاصّاً من الأصوات، أطلق عليها الخليل أصوات الذلاقة ويجمعها قولهم: فر من لب، وهذه الأصوات في مفهومها البلاغي والأدائي تتسم بسهولة النطق وخفته، كما تتسم بكثرة التوظيف في اللغة.

وإذا كان الخليل قد ذكر أن هذه الأصوات الأربعة: (ل، م، ن، ر) تعد من أصوات الذلاقة، فقد اختلف علماء العرب القدامى في مفهوم الذلاقة إلى آراء ثلاثة، هي:

الأول: يرى أن الذلاقة ذات مفهوم بلاغي يتعلق بسهولة النطق وخفته. وتتوزع أصواتها على منطقتين من مناطق النطق: ثلاثة ذلقية- نسبة إلى ذلق اللسان أي طرفه- وهي الراء واللام والنون، وثلاثة شفوية وهي الباء والميم والفاء، ومنهم الخليل بن أحمد والأزهري (ت٣٧٠هـ)[١].

الثاني: يرى أن الذلاقة تعني صفة مخرجية، فهذه الأصوات مضافاً إليها الفاء والباء، مخرجها ذلق اللسان[٢]، دون نظر إلى ما يرتبط بها من خفة وسهولة في النطق. ومن أصحاب هذا الرأي ابن جني، وابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ)،

(١) انظر: كتاب العين، ج١/ ص٥١، ٥٢. وتهذيب اللغة: للأزهري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة،١٣٨٤ه- ١٩٦٤م، ج١/ص٤٤

(٢) لا شك أن نسبة مخرج الأصوات الثلاثة الفاء والباء والميم إلى ذلق اللسان خطأ واضح، فالفاء شفوي أسناني، والباء والميم شفويان. أما الأصوات الثلاثة الباقية اللام والراء والنون فهي أصوات لثوية، ويطلق عليها ذلقية؛ لاعتماد طرف اللسان على اللثة العليا في أثناء نطقها.

وأبو البركات الأنباري (ت٥٧٧هـ)، فهم يرون أن حروف الذلاقة ستة حروف، هي: اللام، والراء، والنون، والفاء، والباء، والميم؛ لأنه يعتمد عليها بذلق اللسان، وهو صدره وطرفه(١).

الثالث: يرى أن الذلاقة صفة مخرجية، فهذه الأصوات "مر بنفل"، مخرجها ذلق اللسان أو طرفه، ولكنهم يضفون عليها صفة الخفة والحسن في الأداء ومنهم الأخفش، وابن دريد (ت٣٢١هـ). قال ابن دريد: "سمعت الأُشْنانداني يقول: سمعت الأخفش يقول: سميت الحروف مذلقة؛ لأَن عملها فِي طرف اللسان، وطرف كل شيء ذلقه، وهي أخف الحروف وأحسنها امتزاجا بغيرها"(٢).

وسواء أكانت الذلاقة صفة مخرجية أم صفة بلاغية فإن هاتين الصفتين لا تنفصلان بل تتكاملان؛ لأنها إذا كانت صفة بلاغية تعني الخفة والسهولة فإن ذلك ربما يرجع إلى سهولة المخرج سواء أكان لثوياً، أم شفوياً، أم شفوياً أسنانيّاً، ولا عجب في ذلك، فالمخرج اللثوي يحتل المرتبة الأولى وفقاً للترتيب التنازلي لشيوع أمكنة النطق، يليه في المرتبة الثانية المخرج الشفوي(٣). وإذا كانت الذلاقة صفة مخرجية تطلق على أصوات اللثة ومنطقة الشفتين من باب العموم، فإن هذه المخارج تتسم بالاقتصاد العضلي، لأنها لا تحتاج إلى عناء أو مجهود يذكر في نطق أصواتها، وهذا يؤدي إلى خفة هذه الأصوات وسهولتها وشيوعها في الاستعمال.

(١) انظر: سر صناعة الإعراب، ج١/ص٦٤، وهذا لا ينفي اتسامها بالخفة، وهي صفة بلاغية، انظر: ص٦٥، ١٤٤، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، ص٣١، أسرار العربية، ص٤٢٢.

(٢) جمهرة اللغة، ج١/ص٤٥. والأُشْنانْدانى هو أبو عثمان سعيد بن هارون الأشناداني، عالم باللغة والأدب، وهذه النسبة الى أُشنانْدان ومعناه بالفارسية موضع الأشنان، (ت٢٥٦هـ). انظر: اللباب في تهذيب الأنساب: ابن الأثير الجزري، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م، ج١/ص٦٧. والأخفش هو سعيد بن مسعدة، عالم باللغة والنحو، (ت٢١٠هـ وقيل: ٢١٥هـ وقيل: ٢٢١هـ). انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ج١/ص٥٩١.

(٣) انظر: الأصوات اللغوية: د.محمد علي الخولي، ص١٢٥.

وخلاصة القول أن الذلاقة باعتبارها صفة بلاغية تعني الخفة- تعتمد على سهولة المخرج لكلٍّ منها، والعكس صحيح، فأصوات الذلاقة باعتبار سهولة مخارجها وسَلاستها تؤدي إلى الخفة، وهي الصفة البلاغية. وهذا ما جعل أصواتها أكثر توظيفاً وشيوعاً في اللغة.

٧- التعرف على أصالة أبنية الرباعي والخماسي من خلالها:

اتخذ الخليل من الأصوات المتوسطة (لم نر) مضافاً إليها الفاء والباء معياراً صوتياً للتعرف على أصالة أبنية معينة من الكلمات، والحكم على عروبتها أو عدم عروبتها. فقد قرر الخليل أن حروف الذلاقة الستة – لما خفت في النطق وسهل على اللسان مذاقها ومنطقها – كثرت في أبنية كلام العرب. ودليل ذلك أنك لا تجد الكلمة العربية الأصيلة من أبنية الخماسي والرباعي خالية من واحد من هذه الحروف أو أكثر، فإن وردت عليك كلمة معراة منها "فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب، لأنك لست واجداً من يسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحد أو اثنان أو أكثر"(١).

وهذا الحكم الذي قرره الخليل بالنسبة لعروبة هذه الأبنية أو عدم عروبتها ينسحب على البناء الخماسي مطلقاً دون استثناء. وأما البناء الرباعي فقد أشار إلى جواز وقوع كلمات قليلة منه خالية من هذه الحروف، نحو القُداحِس، والدُعشُوقة والعَسْجَد والقَسطوس، وغيرها من الكلمات التي لها سمات معينة تحدث عنها الخليل ولا مجال لعرضها هنا(٢).

(١) كتاب العين، ج١/ص٥٢

(٢) انظر: كتاب العين، ج١/ص٥٣، ٥٤، ٥٦، والقُداحِس: الشُّجَاعُ الجَريء، وقيل: السَّيِءُ الخلُق، والدُّعْشُوقة: دويبَّة كالخُنْفُساء، والعَسْجَد معناه: الذهب، والعَسَطُوس: بفتح العين والسين، وفيه لغة بتشديد السين الأولى: هو الخيزران، وقيل: شجر لين الأغصان، ولا شوك له، ينبت بالجزيرة. انظر: لسان العرب، قدحس مج٦/ ص١٧٠، دعشق مج١٠/ ص٩٨، عسجد مج٣/ص٢٩٠، عسطس مج٦/ ص١٤١.

وقد تأثر بهذه المعايير الصوتية جل علماء العرب الذين خلفوا الخليل، فنظروا فيها، وتأكدوا من صدقها، وكانت لهم نبراساً في تعرف الكلمات الأجنبية تعرفاً علميّاً عن طريق النظر في خواصها الصوتية، وعلى رأس هؤلاء ابن جني الذي ذكر ما قرره الخليل بعبارة أوضح، فيقول: "في هذه الحروف الستة [يريد حروف الذلاقة] سر طريف، ينتفع به في اللغة، وذلك أنك متى رأيت اسما رباعيا أو خماسيا غير ذي زوائد، فلا بد فيه من حرف من هذه الستة، أو حرفين، وربما كان فيه ثلاثة، وذلك نحو: جعفر، ففيه الفاء، والراء، وسهلب: فيه اللام والباء، وسفرجل: فيه الفاء والراء واللام، وفرزدق: فيه الفاء والراء"(١).

ثم يقول "فمتى وجدت كلمة رباعية أو خماسية مُعَرّاة من بعض هذه الأحرف الستة، فاقض بأنه دخيل في كلام العرب، وليس منه، ولذلك سُميت الحروف غير هذه الستة مُصْمَتة، أي صُمِت عنها، أن تُبْنَى منها كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلاقة، وربما جاء بعض ذوات الأربعة مُعَرًّى من بعض هذه الستة، وهو قليل جدا، منه العَسْجَد، والعَسَطُوس"(٢) وغيرها.

ويتضح من ذلك مدى تأثر ابن جني في فكره بما توصل إليه الخليل، وأدركه بثاقب فكره- بعد لأْي من الدرس وإمعان في النظر- من خصائص وسمات لأصوات الذلاقة، تلك الأصوات التي لا تكاد تخلو منها أبنية الكلام العربية.

(١) انظر: سر صناعة الإعراب، ج١ / ص٦٤، والجعفر: النهر الصغير، والناقة الغزيرة اللبن، والسلهب: الطويل من الناس والخيل، والسفرجل: ثمر قابض مقو مدر مسكن للعطش، والفرزدق: قطع العجين واحدته فرزدقة، ولقب الشاعر الأموي المعروف واسمه همام، جمع فرازق، وفرازد. انظر: لسان العرب، جعفر مج٤ /ص١٤٢، سلهب مج١ /ص٤٧٤، سفرجل مج١١ /ص٣٣٨، فرزدق مج١٠ /ص٣٠٧

(٢) انظر: سر صناعة الإعراب، ج١ / ص٦٥

المبحث الثاني: خصائص الأصوات المتوسطة فوناتيكيّاً

نتناول هنا الوصف الفوناتيكي للأصوات المتوسطة، وهي اللام /l/ والراء /r/ والنون /n/ والميم /m/، من وجهة النظر الحديثة، فيما يلي:

اللام /l/:

صوت لثوى، جانبي، مجهور، متوسط(١) alveolar, lateral, voiced, liquid

ويتم النطق به برفع طرف اللسان حتى يتصل باللثة، بحيث توجد عقبة في وسط الفم تمنع مرور الهواء منه، ولكن مع ترك منفذ لهذا الهواء من جانبي الفم أو من أحدهما، ورفع الطبق، حتى يتصل بالجدار الخلفي للحلق، فيسد المجرى الأنفي، ويتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به(٢). فاللام على هذا الأساس صوت لثوي جانبي مجهور.

ويرى د. كمال بشر أن اللام صوت أسناني لثوي ينطق باعتماد طرف اللسان على أصول الأسنان العليا مع اللثة، وكذلك النون، وهذا ما يراه د. عبد الصبور شاهين أيضاً(٣). ويَرجع السبب في ذلك في رأى د. بشر إلى تقارب المخرجين لدرجة يصعب معها التفريق بينهما.

ويبدو أن اللام صوت لثوي؛ لارتكاز طرف اللسان على اللثة العليا فقط، أما دفع طرف اللسان ليرتكز على أصول الأسنان العليا مع اللثة فيمكن إرجاعه إلى تكلف هذا النطق، أو اختلاف المخرج قليلاً من شخص إلى آخر؛ لاختلاف الأشخاص. وبناءً على ذلك فاللام صوت لثوي جانبي مجهور متوسط.

---

(١) انظر: An outline of English phonetics, p.23, 24. ويرى د. كمال بشر أن ترجمة المصطلح Liquids هو الأصوات السلسة أو اللينة، وترجمتها بالمائعة خطأً، لكنه آثر ترجمتها بالمتوسطة هنا؛ لوجود هذا المصطلح في تراثنا العربي. انظر: الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق، ص٥٩

(٢) انظر: مناهج البحث في اللغة، ص١٠٥، وانظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص٤٧، ٤٨

(٣) انظر على الترتيب: الأصوات العربية، ص٨٩، علم الأصوات: مالمبرج، دراسة المعرب، ص١٢٣.

واللام في العربية نوعان مرققة ومغلظة (مفخمة)، ويتمثل الفرق بينهما في وضع اللسان مع كل منهما؛ لأن اللسان مع المغلظة يتخذ شكلاً مقعراً مطبقاً على سقف الحنك الأعلى، نتيجة ارتفاع مؤخرته نحوه، مما ينتج عنه الأثر السمعي بالتفخيم، في حين أنه مع المرققة يتخذ وضعاً منفتحاً يتصل فيه بالحنك الأعلى من نقطة واحدة أمامية(١).

ويبدو أن الأصل في اللام هو الترقيق، ولذلك لم يرمز الرسم العربي للام العربية المفخمة برمز خاص بها يتغير بتغيره المعنى، ولا يجوز الرجوع عن هذا الأصل عند جمهور القراء إلا إذا جاورت اللام أحد الأصوات المفخمة ساكنة أو مفتوحة، وأن تكون اللام نفسها مفتوحة، نحو: وما صلبوه، سيصلى، أظلم، وتكون اللام مفخمة أيضاً في لفظ الجلالة "اللَّه"، إلا إذا كان يسبقها كسرة، نحو: بالله(٢). ويبدو للباحث أن اللام المرققة والمفخمة في العربية الفصحى ألوفونان لفونيم واحد؛ وذلك لعدم إمكانية الحصول على ثنائيات واقعية من الكلمات تمثل ثنائيات صغرى، تتشابه فونولوجياً، وتختلف دلالياً.

بيد أن علماء اللغة المحدثين قد انقسموا تجاه اللام إلى فريقين: الأول: يرى أن اللام المفخمة والمرققة وحدة أصواتية واحدة، ويمثل هذا الاتجاه د.إبراهيم أنيس ود.عبد الصبور شاهين(٣). الثاني: يرى أن اللام المفخمة في اللغة العربية فونيمٌ مستقل، ويمثل هذا الاتجاه د.أحمد مختار عمر، واعتمد في ذلك على ما قاله فرجسون في مقاله: "اللام المفخمة في اللغة العربية" The Emphatic l in Arabic(٤). فذكر

(١) انظر: الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٦٤، وعلم الأصوات: مالمبرج، دراسة المعرب، ص١١٧، ١١٩.

(٢) انظر: الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص ٦٤، ٦٥

(٣) انظر: الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص ٦٤، ٦٥، وعلم الأصوات: مالمبرج، دراسة المعرب، ص١١٩.

(٤) انظر دراسة الصوت اللغوي، ص٣٣١-٣٣٤ معتمدا على هذا المقال بمجلة Language، الجزء ٣٢، العدد ٣، عام ١٩٥٩م، ص٤٤٦-٤٥٢.

متابعاً ومؤيداً فرجسون أنه "أمكن الحصول على ثنائيات واقعية من الكلمات، تمثل ثنائيات صغرى، ويتركب كل منها من لفظ الجلالة مع لفظ آخر يشابهه فونولوجياً، ويخالفه في المعنى، وعلى سبيل المثال من اللغة العربية الفصحى:

أ- واللهُ wallaahu

ولاهُ wallaahu

ب- واللهِ wallhi

واللاهي" wallaahi[1].

وهاتان الثنائيتان مبنيتان على مغالطة، ففي الثنائية (أ) (واللهُ، ولاّهُ)، نلاحظ أن المؤلف بناها على اعتبار الواو من بنية الكلمة، وليس كذلك في الكلمتين؛ لأن الواو مع لفظ الجلالة تعد فونيماً، يمثل أداة مستقلة، فهي مورفيم حرّ، أي أن الكلمة الأولى مكونة من: واو الاستئناف+ لفظ الجلالة (الله). أما الواو في الكلمة الثانية فهي جزء من مورفيم حر، هو "ولّى"، أي أن الكلمة الثانية مكونة من: ولّى + الهاء، وهي ضمير الغائب التي تمثل مورفيماً مقيداً. في حين أنها في لفظ الجلالة ليست كذلك، فهي جزء من مورفيم حر، هو "إله"، ومن هنا لا يصح عقد هذه الثنائية.

أما الثنائية (ب) والله، واللاهي، فهي لا تصح أيضاً؛ لأن الواو في كلٍّ مستقلة بمفردها عن بنية الكلمة التالية، ويختلف معناها تبعاً لذلك، فهي للقسم مع لفظ الجلالة، وللاستئناف أو للعطف مع الكلمة الثانية. والكسرة في نهاية الكلمة الأولى حركة إعراب، في حين أن الكسرة في الكلمة الثانية مجتزأة من الياء، ولذلك فهي مازالت تحتفظ بهذا الملمح التمييزي الدلالي وإن تحولت إلى كسرة قصيرة في حالة تطرفها. فمن الممكن أن تعود الياء وتتلوها الحركة الإعرابية نحو:

(١) دراسة الصوت اللغوي، ص٣٣٣.

إن اللاهِيَ غافل عن طاعة ربه. أضف إلى ذلك أنه يمكن إسقاط الألف واللام من الكلمة الثانية فتصير نكرة هكذا "لاهياً"، وإذا أسقطناها من لفظ الجلالة صارت الكلمة "إلهاً" حيث تعود إليها الهمزة.

ومن هنا يتبين لنا أن الرأي القائل باعتبار اللام المفخمة فونيماً مستقلاً في اللغة العربية الفصحى رأى يجانبه الصواب؛ لأن أمثلته متكلفة. فهي ألوفون allophone (أي صورة موقعية) لفونيم اللام سواء في ذلك الفصحى أو اللهجات.

الراء / r /:

صوت لثوي، تكراري أو لمسي انفجاري، مجهور، متوسط

alveolar, trilled or flap plosive, voiced, liquid

ويتم النطق بصوت الراء في العربية الفصحى بأن يترك اللسان مسترخياً في طريق الهواء الخارج من الرئتين، فيرفرف اللسان، ويضرب طرفه في اللثة، إما ضربة واحدة، ثم يفارقها، فيكون الصوت لمسياً (مستلاً) انفجارياً، وإما ضربات متكررة فيكون الصوت تكرارياً، ويتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به[1].

(١) يبدو أن علماء اللغة المحدثين قد اختلفوا في وصف الراء؛ فمنهم من وصفها بأنها لمسية (مستلة)، وهم القلة، مثل د.عبد الرحمن أيوب، ود.عبد الصبور شاهين، وإن نصا على وجود الراء المكررة أيضاً حاصة عندما تكون مشددة، وزاد الأخير عندما تكون ساكنة أيضاً. انظر على الترتيب: أصوات اللغة، ص٢٠٣، ٢٠٤، علم الأصوات: مالمبرج، دراسة المعرب، ص١١٩. ومنهم من وصفها بأنها تكرارية، – وهم الأكثرية الذين نَحَو منحى علماء اللغة القدامى– نحو: د.تمام حسان، ود.إبراهيم أنيس، ود.رمضان عبد التواب، ود.كمال بشر، ود.أحمد مختار عمر، وجان كانتينو، ود.صلاح الدين حسنين، وغيرهم. انظر على الترتيب: مناهج البحث في اللغة، ص١٠٤، والأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٦٦، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص٤٨، والأصوات العربية، ص١٢٩، ودراسات في علم اللغة، ص١٧٠، ودراسة الصوت اللغوي، ص٣١٦، ٣١٧، ٣٩٦، ودروس في علم أصوات العربية، نقله إلى العربية صالح القرمادي، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية،١٩٦٦م،ص٧٥، والمدخل إلى علم الأصوات دراسة مقارنة: د.صلاح الدين حسنين، دار الاتحاد العربي، القاهرة،ط١، ١٩٨١م،ص٩٢.

ويرى الدكتور إدوارد حنا، بناءً على البحث المختبري المبني على الرسوم الطيفية للصوت spectrograms، أن الراء المستلة ترد في المواقع الثلاثة؛ أول الكلمة ووسطها وآخرها، في حين "لا ترد الراء المكررة بشكل منتظم إلا في وسط الكلمة، أما في آخرها فإنها بمثابة البديل الحر للراء المستلة"(١).

وقد توصل الدكتور إدوارد في هذا البحث المعملي إلى "أن أكثر أنواع الراء تردداً في العربية –من الناحية الصوتية العامة– هي راء مستلة، وخاصة عندما ترد بين صائتين intervocallic، [أو قبل الحركات مباشرة] ..... وعندما تشدد الراء تكون مكررة، والذي يجعل الراء المكررة أصيلة proper thrill هو مشاهدة أكثر من فجوتين في صورها الطيفية، مما يوحي بأن الراء المكررة ليست مجرد راء مستلة مضافة إلى راء مستلة أخرى"(٢)؛ لأن طرف اللسان لا يضرب في اللثة ضربتين فقط في التكرير.

ويبدو أن التكرير في الراء يرتبط بالمقطع لا بالتضعيف(٣)؛ فالسبب في تكرارها وقوعها آخر المقطع الصوتي، أو قبل آخره متلوةً بصامت آخر؛ فوقوعها آخر المقطع الصوتي يتحقق في مقطعين، أولهما: المقطع المتوسط المغلق(ص ح ص)، مثل المقطع الأول من كلمة الربيع، والمقطع في كلمة سِرْ فعل أمر من سار، وثانيهما: الطويل المغلق بصامت (ص ح ح ص)، مثل المقطع الثاني من كلمتي سرير وفقير، والمقطع في كلمتي: غار ونار. ووقوعها قبل آخر المقطع الصوتي متلوة

(١) الراء في العربية "دراسة صوتية"، "مقال"، نشر بمجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، الرباط، المملكة المغربية، ١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م، مج ١٧، ج١ / ص٨٢. ويراد بالبدائل الحرة: إمكانية ورود الراء مستلة أو مكررة في المواقع الأخيرة.

(٢) الراء في العربية "دراسة صوتية"، مقال بمجلة اللسان العربي، مج ١٧، ج١ / ص٨٣.

(٣) يكون صوت الراء مكرراً من وجهة نظر القدامى في حالات ثلاث: الأولى: إذا جاء مضعفاً، نحو الرَّبيع، الثانية إذا وقع ساكناً في وسط الكلمة، نحو زَرْع، الثالثة: إذا وقع آخر الكلمة مسبوقاً بأي حركة قصيرة أو طويلة من أي نوع، سِر، سرير، سارّ، ويكون التكرار بتأثير الحركة.

بصامت آخر يتحقق في مقطعين، أولهما: المقطع الطويل المغلق بصامتين (ص ح ص ص)، مثل المقطع في كلمتي: زرعْ وسِرّ، وثانيهما: المقطع الطويل مزدوج الإغلاق (ص ح ح ص ص)، مثل: سارّ، فارّ. ومن الملاحظ أنه في كل هذا لا تكون الراء المكررة متلوة بحركة، ويظهر هذا الوضع جلياً بالنظر في البنية المقطعية للأمثلة التي ذكرناها وفي غيرها. فإن تليت بحركة، أو وقعت بين حركتين، فهي راء لمسية.

أما من الناحية الوظيفية فرأى د.إدوارد أنه يجب "اعتبار الراء المكررة وحدة صوتية ما دامت تملك قيمة تقابلية oppositional value لتضادها مع الراء المستلة. وبدون هذه المعالجة فإننا سنجرد عملية التشديد من دورها الصوتي الوظيفي"(١)، ودلل على ذلك بالثنائيات التالية: (درَس darasa ودرَّس darrasa)، و(جرَد garada وجرَّد garrada)، و(جرَت garat، وجرَّت (garrat)(٢). فالراء المكررة -من وجهة نظره- تعتبر هنا صامتاً طويلاً يمثل وحدة صوتية واحدة أي فونيماً، بل يجب أن يضاف الصامت الطويل باعتباره وحدة صوتية واحدة إلى النظام الصوتي في العربية؛ نظراً لأن التشديد لا يختص بالراء وحدها، وإنما يشمل كل الصوامت العربية.

على أن هذا يخالف ما ذهب إليه محمد حسن باكلا، فهو يرى أن ابن جني حينما أشار إلى الراء المكررة، ولم يشر إلى أي نوع آخر من أنواع الراء؛ نحو: الراء اللمسية، والراء المرققة والراء المفخمة؛ ربما لأنه يرى أن التكرار هو صفة الراء الوحيدة المميزة لها بوصفها وحدة صوتية، وأما ما عداها من التفخيم أو الترقيق أو

(١) الراء في العربية "دراسة صوتية"، مقال بمجلة اللسان العربي، مج ١٧، ج١ / ص٨٣

(٢) يعتبر الصامت الطويل وهو التضعيف هنا وحدة صوتية ووحدة صرفية معاً، أي أنه يعد فونيماً ومورفيماً من الناحية الوظيفية. وهذا التضعيف لا يختص بالراء وحدها وإنما يتعداها إلى غيرها من الأصوات، وقد جاء التضعيف لمعان كثيرة ذكرها النحاة في مصنفاتهم. ومن أرادها فليرجع إليها في مظانها.

اللمس، فليس كذلك(١).

لكن ما السبب في وصف اللغويين العرب القدامى - ومنهم ابن جني - للراء بالتكرار دائماً دون ذكر أي وصف للراء بالمستلة؟ نقول: لعل ذلك يرجع إلى عدة أسباب؛ هي(٢):

١- عدم تمييزهم أحياناً بين المستويين الطبيعي والوظيفي (أي الفوناتيكي والفونولوجي)، وذلك على الرغم من براعتهم في وصف الكثير من الأصوات.

٢- الاعتماد بصورة رئيسية على حاسة السمع في تحديد معالم الصوت وطبيعته، والافتقار إلى الوسائل المختبرية الحديثة التي كثيراً ما تنبه الباحث إلى تفاصيل قد يغفل عنها.

٣- لعل الوضوح السمعي للراء المكررة، وهو أشد وقعاً على السمع، وأكثر اجتذاباً له، قد جعل مهمة الإحساس بالراء المستلة أكثر صعوبة.

٤- الافتقار إلى الدراسات الصوتية المقارنة للعربية بغيرها من اللغات، تلك الدراسات التي تعين الباحث للتوصل إلى التفاصيل الأدائية والسمعية للأصوات، وتحديد سماتها ودورها الوظيفي.

ولعل هذه الأسباب أيضاً باستثناء السبب الأول، هي التي أدت إلى عدم وصول كثير من علماء اللغة المحدثين في تشخيص وجود الراء المستلة والتمادي في وصفها بالمكررة. أضف إلى ذلك أن هؤلاء المحدثين ربما تتلمذوا على أمهات كتب اللغويين القدامى في الدرس الصوتي، فتأثروا بهم؛ لأنه لا يَرِد عندهم أي وصف للراء إلا المكررة(٣).

(١) انظر: مبادئ علم الأصوات العام: ديفيد أبر كرومبي، ترجمة وتعليق د.محمد فتيح، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، هوامش المترجم، ص٢٧٩، نقلاً عن:

Ibn Jinni,An Early Arab Muslim Phonetician: An Interpretive Study of his Life and contribution to Linguistics, Bakalla, London & Taipei, 1982, P. 150, 219.

(٢) انظر: الراء في العربية "دراسة صوتية"، مقال بمجلة اللسان العربي، مج ١٧، ج١/ ص٨٣، ٨٤

(٣) انظر: الراء في العربية "دراسة صوتية"، مقال بمجلة اللسان العربي، مج ١٧، ج١/ ص٨٤

هذا عن الراء اللمسية والراء المكررة، أما عن الراء المرققة والمفخمة سواء أكانت لمسية أم مكررة، فالفرق بينهما كالفرق الذي ذكرناه بين اللام المرققة والمفخمة، فالراء المفخمة تنشأ من ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الحنك الأعلى، "ويحدث ذلك للراء المفتوحة أو المضمومة، والساكنة بعد فتح أو ضم، كما في رَبّ، ورُوح، وبَرْد، وقُرْط، فأما المكسورة أو الساكنة بعد كسر فترقق، كما في: رِسالة، وفِرْعون، وقد تفخم الراء الساكنة بعد كسر إذا جاء بعدها صوت مفخم، كما في: قِرْطاس"(١).

وتعد "الراء المفخمة من الناحية الصوتية أحد أصوات الإطباق، ولكن الرسم العربي لم يرمز لها برمز خاص يتغير بتغيره المعنى، ولهذا نعد كلا النوعين.... فونيماً واحداً"(٢) في اللغة العربية الفصحى. أما الراء المفخمة في اللهجة المصرية فتعد فونيماً مستقلاً، لوجود ثنائيات واقعية من الكلمات، تمثل ثنائيات صغرى، تتشابه فونولوجياً، وتختلف دلالياً، فالراء المفخمة تتبادل الموقع مع الراء المرققة، فيتغير المعنى، فهي إذن تشكل ملمحاً تمييزياً فيها، نحو:

رف rff وهى تعنى خشب يثبت حرفه في عرض الحائط توضع عليه الأواني وغيرها.

رف raff وهى تعنى اختلاجة العين أو الحاجب، وتعني أيضاً إصلاح الثوب بالنسج.

رامي rmi علم لرجل

رامي raami بمعنى باذر أو زارع

فالراء في الكلمتين الثانية والرابعة صوت لثوي لمسي مجهور مرقق، وهي تعد فونيماً مغايراً للراء في الكلمتين الأولى والثالثة، فصوت الراء فيهما لثوي لمسي مجهور مفخم.

(١) علم الأصوات: مالمبرج،دراسة المعرب، ص١١٨، ١١٩

(٢) الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٦٥، وانظر: علم الأصوات: مالمبرج، دراسة المعرب، ص١١٩

الأصوات الأنفية:

عند إصدار الأصوات الأنفية يحبس الهواء حبساً تاماً في موضع الفم، ويخفض الحنك اللين (الطبق)، فيمر الهواء من الأنف. والصوتان الأنفيان في العربية، هما: الميم، والنون.

الميم /m/:

صوت شفوي ثنائي، أنفى، مجهور، متوسط bi-labial, nasal, voiced, liquid

وينطق هذا الصوت بأن "تنطبق الشفتان انطباقاً تاماً عند النطق به، فيحبس الهواء حبساً تاماً في الفم، ولكن يخفض الحنك اللين، فيتمكن الهواء الخارج من الرئتين من المرور عن طريق الأنف؛ بسبب ما يعتريه من ضغط، ويتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به"(١). فالميم إذن صوت شفوي ثنائي أنفي مجهور.

النون /n/:

صوت لثوى، أنفى، مجهور، متوسط alveolar, nasal, voiced, liquid

وينطق هذا الصوت بأن "يلتقى طرف اللسان باللثة (أصول الثنايا العليا)"(٢) ثم "يندفع الهواء من الرئتين مُحَرِّكاً الوترين الصوتيين، ثم يتخذ مجراه في الحلق أولاً، حتى إذا وصل إلى الحلق هبط أقصى الحنك الأعلى، فيسد بهبوطه فتحة الفم، ويتسرب الهواء من التجويف الأنفي محدثاً في مروره نوعاً من الحفيف لا يكاد يسمع"(٣).

ويرى د.بشر أن النون صوت أسناني لثوي ينطق باعتماد طرف اللسان على أصول الأسنان العليا مع اللثة، وهذا ما يراه د.عبد الصبور شاهين أيضاً(٤)، فالنون

(١) الأصوات العربية، ص١٣٠، وانظر: مناهج البحث في اللغة، ص١٠٥

(٢) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص٤٩.

(٣) الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٦٦.

(٤) انظر على الترتيب: الأصوات العربية، ص٨٩، علم الأصوات: مالمبرج، دراسة المعرب، ص١٢٣.

على هذا الأساس صوت أسناني لثوي أنفي مجهور. ويَرجع سبب اختلاف المخرج عند الدارسين في رأى د.بشر إلى تقارب المخرجين لدرجة يصعب معها التفريق بينهما.

ويبدو أن النون صوت لثوي؛ لارتكاز طرف اللسان على اللثة العليا فقط، لكن دفع طرف اللسان ليرتكز على أصول الأسنان العليا مع اللثة فلعله يرجع إلى تكلف هذا النطق، أو اختلاف المخرج قليلاً من شخص إلى آخر. وبناءً على ذلك فالنون صوت لثوي أنفي مجهور متوسط.

المبحث الثالث: سمات الأصوات المتوسطة فونولوجيّاً

تتأثر الأصوات المتوسطة في العربية (اللام والراء والميم والنون) بما يجاورها من أصوات في السياق بالنظر إلى مدى القرب منها مخرجاً وصفة، ويتضح ذلك مما يلي:

اللام:

تتأثر لام التعريف في السياق عندما تجاور صوتاً بعدها مجانساً أو مقارباً لها في المخرج، فتتماثل صوتيّاً معه مماثلة رجعية كلية متصلة، ويبلغ عدد هذه الأصوات ثلاثة عشر صوتاً، وهي: الذال d والثاء t والظاء z ، والتاء t والدال d والضاد d والطاء t والسين s والزاى z والصاد s، والراء r والنون n، والشين S. والمسوغ لهذا التماثل هو تقارب مخارج هذه الأصوات مع مخرج اللام، نحو: الذئب 'add'b، الثوم 'attawm، الظالم 'azzalim، التقوى 'attaqwaa، الدقيق 'addaqiiq، الضرب 'addarb، الطريق 'attariiq، السوق 'assuuq، الزراعة 'azziraaah، الصبح 'assubh، الريح 'arriih، الناس 'annaas، الشهيد 'assahiid. ففي كل هذه الأمثلة تأثرت اللام بما تلاها من أصوات، فماثلتها صفة ومخرجاً، فالتقى مثلان، فحدثت المماثلة الكاملة (الإدغام)، وهي مماثلة متصلة لعدم وجود فاصل بينهما. ويطلق على اللام في هذه الحالة اللام الشمسية، وهي لام تكتب ولا تنطق.

النون:

تتأثر النون بما يجاورها من أصوات، خاصة إذا وقعت ساكنة فيتحقق اتصالها بما بعدها اتّصالا مباشراً، فتنتقل بمخرجها غالباً إلى مخرج الصوت التالي لها. ويتوقف مدى تأثر النون بغيرها على مدى قرب مخرج الصوت وصفته منها، "فهي أكثر تأثراً بمجاورة أصوات طرف اللسان ووسطه من تأثرها بمجاورة تلك التي مخرجها أقصى اللسان"(١)، وتتأثر النون بالأصوات المتوسطة باستثناء العين أكثر من تأثرها بغيرها من الأصوات، وتتراوح درجات تأثر النون الساكنة بالأصوات المجاورة لها بين المماثلة الكلية (الكاملة) والمماثلة الجزئية (الناقصة)، ويتضح ذلك فيما يلي:

أولاً: مماثلة النون الساكنة المتطرفة لما بعدها مماثلة رجعية كلية متصلة:

تماثل النون الساكنة المتطرفة أصوات: اللام ، والراء، والميم، والياء، والواو بعدها مماثلة رجعية كلية متصلة، ونتناول ذلك فيما يلي:

١- مماثلة النون للام، نحو: فإن لم تفعلوا fa-'il-lam-tafcaluu، فهنا تأثرت النون باللام تأثراً رجعياً، فسمح للهواء بالمرور من جانب الفم الأيمن أو الأيسر أو كليهما معاً، بعد غلق المجرى الأنفي برفع الحنك اللين. وهكذا ماثلت النون اللام مخرجاً وصفة. وهذه مماثلة رجعية كلية متصلة؛ لأن الصوت السابق تأثر بالصوت اللاحق في كل خصائصه دون فاصل. وهذا ما يطلق عليه الإدغام بغير غنة في التجويد القرآني.

٢- مماثلة النون للراء، نحو: من ربهم mir-rbbihim، فهنا تأثرت النون بالراء تأثراً رجعياً، فسمح للهواء بالمرور معها من الفم، مع طرق اللسان اللثة ضربات متعددة، وذلك بعد غلق المجرى الأنفي برفع الحنك اللين، وهكذا ماثلت النون الراء

(١) الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٦٨.

صفة ومخرجاً، وهذه مماثلة رجعية كلية متصلة. ويطلق على ذلك في التجويد الإدغام بغير غنة؛ نظراً لتلاشي النون وانعدام أي أثر لها مع الراء واللام.

٣- مماثلة النون للميم مع التأنيف، نحو: من مَّا mim-ma، إن مّا im-ma، فهنا تأثرت النون بالميم تأثراً رجعياً كلياً، فانتقلت بمخرجها إلى الأمام، مع المحافظة على صفتي الأنفية والجهر، فلم تجد شبيهاً لها إلا الميم، فصارت ميماً. وهذه مماثلة رجعية كلية متصلة. ويُطلق على هذه الظاهرة في التجويد القرآني "الإدغام بغنة"، وهو إدغام ناقص(١)؛ لصيرورة النون إلى ميم بها نوع من الأنفية خلال النطق بالحرف مشدداً.

على أن ابن جني قد فطن إلى نوع من العلاقة بين الواو والياء من ناحية، والنون والميم من ناحية أخرى، وإن اعتمد على المنطق في تفسير هذه العلاقة، فيقول: "إنهم أدغموا النون في الميم، لاشتراكهما في الغنة والهوي في الفم، ثم إنهم حملوا الواو في هذا على الميم، فأدغموا فيها النون لأن الواو ضارعت الميم بأنهما من الشفة، ثم إنهم أيضاً حملوا الياء على الواو في هذا؛ لأنها ضارعتها في المد، وإن لم تكن معها من الشفة، فأجازوا إدغام النون في الياء"(٢).

٤، ٥- مماثلة النون للياء أو الواو مع التأنيف، نحو: من يقول may-yaquul، من وال miw-waal، ومماثلة النون الساكنة للياء والواو من الشهرة بمكان في القراءات القرآنية، فعندما "تلتقي النون باليا والواو يسمح بمرور الهواء من الأنف والفم معاً، وهذه هي الحالة الوحيدة التي يسمح فيها بذلك عند جمهور الفقهاء، نحو قراءة: مَنْ يقول- مِنْ وال"(١)، التي تقرأ: ميَّقول، مِوَّال. وحقيقة ذلك

(١) انظر: التمهيد في علم التجويد: لابن الجزري، تحقيق: الدكتور على حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، ص١٥٦

(٢) سر صناعة الإعراب، ج١/ص٥٥

(٣) الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٧٢. ويطلق على هذه الظاهرة عند المحدثين Nazalisation.

الصوت الأنفي الذي نسمعه هنا في هذا التماثل "ليس نوناً بل هو ياء أنفمية أو واو أنفمية، سمح عند النطق بها بأن يمر الهواء من كل من الأنف والفم، فالنون في المثال الأول قلبت ياءً، وفي الثاني واواً، ولكن هذه الياء وتلك الواو قد شاب كلاً منهما شائبة، وهي النطق بهما من الأنف والفم معاً"(١). ويرى علماء التجويد أن هذا نوع من القلب تبعه إدغام؛ ولكنه قلب ناقص، إذ لم يتحول الصوت المقلوب إلى كل صفات الصوت المقلوب إليه؛ لبقاء الأنفية (الغنة) في النون، مما جعل القدماء يسمون هذا النوع من الإدغام إدغاماً ناقصاً بغنة(٢). ويقع دائماً في كلمتين.

ثانياً: مماثلة النون الساكنة لما بعدها مماثلة رجعية جزئية متصلة:

تماثل النون الساكنة أصوات: الباء، والفاء، والثاء والذال والظاء، والتاء والدال والطاء والضاد والسين والصاد والزاي، والشين والجيم، والكاف، والقاف، حينما تقع بعدها، مماثلة رجعية جزئية متصلة، إما في المخرج، وإما في المخرج والتفخيم معاً، ويتضح ذلك فيما يلي:

١- مماثلة النون للباء في المخرج فتصير ميماً، نحو: جنب gamb، من بعد mim-bacd، فهنا تأثرت النون الساكنة بالباء (سواء اجتمعتا في كلمةٍ واحدة أو في كلمتين) تأثراً رجعياً فانتقلت بمخرجها اللثوي إلى المخرج الشفوي، فصارت ميماً. فالمماثلة هنا رجعية جزئية متصلة. وهذا ما يطلق عليه الإقلاب في التجويد القرآني، ولكن مع حدوث غنة مصاحبة لنطق الميم(٣)، أي أن الميم صارت مؤنَّفة. وقد ذكر الداني علة قلب النون ميماً قبل الباء، فقال: "من أجل مؤاخاة الميم للنون

(١) الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٧٢.

(٢) انظر: التمهيد في علم التجويد، ص١٥٦، والنشر في القراءات العشر، ج٢/ص٢٨، والأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٧٢

(٣) انظر: علم الأصوات: مالمبرج، دراسة المعرب، ص١٢٤.

في الغنة، ومشاركتها للباء في المخرج"(١) فقلبت ميماً من أجل ذلك.

٢- مماثلة النون الساكنة للفاء في المخرج، نحو: ينفع yanfa^{c}، فالنون الساكنة إذا تلتها الفاء- سواء أكانتا في كلمة واحدة أم في كلمتين- تأثرت بها في المخرج، فصارت صوتاً شفويّاً أسنانيّاً، "يتم النطق به بخلق صلة بين الشفة السفلى وبين أطراف الأسنان العليا(٢). وهذا يعني أن النون ماثلت الفاء في المخرج فقط، وخالفتها في صفتي الأنفية والجهر.

٣- مماثلة النون الساكنة للأصوات بين الأسنانية في المخرج، نحو: من ذا الذي man- da-lladi ظلمات ثلاث zulumaatin-talaat من ظلم man- zalam، فهنا تأثرت النون الساكنة بالأصوات بين الأسنانية التي تلتها في المخرج، فصارت صوتاً بين أسناني، ينطق به بوضع طرف اللسان ضد أطراف الأسنان العليا(٣). أما النون قبل الظاء فإنها تماثلها بالإضافة إلى ذلك في التفخيم، فتصير صوتاً مفخماً، حيث يرتفع مؤخر اللسان في اتجاه الطبق، ويرجع نحو الجدار الخلفي للحلق فيحدث التفخيم. وتوصف النون الساكنة قبل الظاء بأنها صوت بين أسنانيّ أنفيّ مجهور مفخم. ويرى د.فريد حيدر أن النون الساكنة تأثرت بهذه الأصوات بين الأسنانية، فتقدمت بمخرجها قليلاً إلى الأمام؛ فصارت أسنانية لثوية؛ لأن طرف اللسان يأخذ وضع النطق بالذال، ولا يرتكز على اللثة، فيتقدم قليلاً ليكون ملامساً للثة خلف الأسنان العليا، فالنون هنا صوت أسناني لثوي أنفي مجهور مرقق قبل الذال والثاء، ومفخم قبل الظاء، وبذلك اقتربت النون بمخرجها من مخرج الأصوات بين الأسنانية، فالمماثلة هنا رجعية جزئية متصلة(٤).

(١) التحديد في الإتقان والتجويد: أبو عمرو الداني، تحقيق: د.غانم قدوري حمد، مكتبة دار الأنبار، بغداد، ط١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٨م، ص١١٧

(٢) انظر: مناهج البحث في اللغة، ص١٠٥

(٣) انظر: مناهج البحث في اللغة، ص١٠٥، ١٠٦

(٤) انظر: كتاب علم الأصوات، ص١٧٤

٤- مماثلة النون الساكنة للأصوات الأسنانية اللثوية (التاء، والدال، والزاي، والسين) في المخرج، نحو: إن دأب i'n-da'aba- إن تبع in-tabi^{c}a - إن زرع i'n- zar^{c}a- إن سكت i'n-sakata، فالنون التي وقعت في هذه الأمثلة قبل أصوات الدال والتاء والزاي والسين ماثلتها في المخرج، فصارت صوتاً أسنانيّاً لثويّاً، ينطق به بوضع طرف اللسان ضد الأسنان العليا (في حالة الشدة والسفلى في حالة الرخاوة فيما يتبعه)، ومقدمه ضد اللثة[١]. أي أن طرف اللسان يتقدم قليلاً ليرتكز على أصول الثنايا العليا ومقدم اللثة مع النون الساكنة قبل الدال والتاء، في حين يقترب طرف اللسان اقتراباً شديداً من أصول الثنايا السفلى ومقدم اللثة ولا يرتكز عليهما معها قبل الزاي والسين، وبذلك تماثل ما بعدها في المخرج.

٥- مماثلة النون الساكنة للأصوات الأسنانية اللثوية (الصاد، والضاد، والطاء) في المخرج، وفي التفخيم، نحو: إن طلب i'n-talaba - إن ضعف i'n-da^{c}ufa - إن صلح i'n-saluha، فالنون الساكنة التي وردت هنا قبل الطاء والضاد والصاد، ماثلتها في المخرج والتفخيم، فصارت صوتاً أسنانيّاً لثويّاً مفخماً، ينطق به بوضع طرف اللسان ليلتصق بأصول الثنايا العليا ومقدم اللثة قبل الطاء والضاد، وأصول الثنايا السفلى واللثة قبل الصاد، وارتفاع مؤخر اللسان في اتجاه الطبق، ورجوعه نحو الجدار الخلفي للحلق[٢].

٦- مماثلة النون الساكنة لصوتي الشين والجيم في المخرج، نحو: من شاء man-saa'a، من جاء man- gaa'a، فالنون الساكنة هنا قبل الشين والجيم ماثلتهما في المخرج، فصارت صوتاً غاريّاً أو حنكيّاً صلباً، يتم النطق به برفع مقدم اللسان في اتجاه الغار[٣].

(١) انظر: مناهج البحث في اللغة، ص١٠٦

(٢) انظر: مناهج البحث في اللغة، ص١٠٦

(٣) انظر: مناهج البحث في اللغة، ص١٠٦، ١٠٧

٧- مماثلة النون الساكنة لصوت الكاف في المخرج، نحو: من كفر man-kafar، إن كان in-kaana. فالنون الساكنة هنا ماثلت الكاف التي تليها في المخرج، فصارت صوتاً طبقيّاً يتم النطق به برفع مؤخر اللسان إلى الطبق(١).

٨- مماثلة النون الساكنة للقاف بعدها في المخرج، نحو: من قبل min-qabl، إن قال in-qaala ، فهنا تأثرت النون الساكنة بصوت القاف بعدها في المخرج، ففقدت مخرجها، واقتربت من مخرج القاف وهو اللهاة، فصارت صوتاً لهويّاً، ونظراً لتأثر النون بالقاف بعدها في المخرج فقط، دون فاصل، فالمماثلة هنا رجعية جزئية متصلة.

ملاحظات:

١- من الملاحظ أن مماثلة النون الساكنة لما بعدها في كل الحالات الثمانية، هي مماثلة رجعية جزئية متصلة؛ لأن التأثير يأتي عليها من الخلف، في المخرج، أو المخرج والتفخيم معاً، دون فاصل. وتحدث هذه المماثلة سواء أوقعت النون الساكنة مع أحد هذه الأصوات في كلمة واحدة أم في كلمتين؛ نهاية الكلمة الأولى وبداية الثانية.

٢- تبدو العلة في كل هذه المماثلات في النَّحْوِ مَنْحَى الاقتصاد في الجهد العضلي المبذول، مما يؤدي إلى سهولة النطق.

٣- يبدو أن النون الساكنة في كل الحالات السبعة الأخيرة "تطول وتميل إلى مخرج الصوت الذي بعدها"(٢)، ومعنى ذلك أن "النون الساكنة تفقد جزءاً من مخرجها، وهو اللثة، وفي مقابل ذلك تكتسب جزءاً من مخرج الصوت الذي تخفى فيه، وذلك بالاقتراب منه، وفي نفس الوقت تحتفظ بجزء من مخرجها، وهو

(١) انظر: مناهج البحث في اللغة، ص١٠٧

(٢) دراسة الصوت اللغوي، ص٣٨٩،

الأنف"(١). ويطلق على مماثلة النون الساكنة في هذه الحالات في علم التجويد "الإخفاء الحقيقي"، يعني إخفاؤها فيما بعدها، بنطقها أنفية مع وضع اللسان موضع الحرف التالي لها بشكل متزامن فلا يبقى منها إلا الغنة، والحروف التي تخفى عندها النون الساكنة خمسة عشر صوتاً، جمعت في بداية الكلمات في البيت التالي:

صف ذا ثنا كم جاد شخص قد سما دم طيباً زد في تقى ضع ظالماً

٤- تماثل النون الساكنة في اللهجة المصرية المعاصرة التاء والدال مماثلة رجعية كلية متصلة، نحو: ماكنتّش makuttis، البنتّ ilbett'، تندّبح tiddabah، حيث تتأثر النون بالتاء في المثالين الأول والثاني تأثراً رجعياً، فتتقدم بمخرجها قليلا إلى الإمام مع غلق المجرى الأنفي وعدم ذبذبة الوترين الصوتيين فتصير تاء، ويحدث الإدغام. وفي المثال الثالث أصاب النون مع الدال ما أصابها مع التاء، ولكن مع حدوث ذبذبة في الوترين الصوتيين. وهذا التماثل لا يوجد في العربية الفصحى.

الميم:

يبدو أن الميم "أقل تأثراً من النون بما يجاوره من أصوات، فاحتمال فناء الميم في غيرها نادر"(٢)، فالغالب عليه الإظهار؛ لأنه لا يتأثر بما بعده من أصوات غالباً، باستثناء حالة واحدة، يجوز أن يتأثر فيها بما بعده، وهي إذا جاء بعده الباء، ولا يكون ذلك إلا في كلمتين(٣). ففي هذه الحالة يمكن أن تماثل الميم الساكنة الباء بعدها في الصفة مع الحفاظ على التأنيف أو الغنة مماثلة رجعية جزئية متصلة، نحو: مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْم maa-lahum-bihii-min-ᶜilm، فالميم هنا صوت شفوي

(١) كتاب علم الأصوات، ص١٧٢

(٢) الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٧٣

(٣) انظر: غاية المريد في علم التجويد: عطية قابل نصر، القاهرة، ط٧، ص٧٤

ثنائي أنفي مجهور متوسط، يتم النطق به بانطباق الشفتين انطباقاً شبه تام، وبخفض الطبق، فينفتح المجرى الأنفي، ويمر الهواء منه، وتتذبذب الأوتار الصوتية حين النطق به(١). وهذه المماثلة يسميها القراء الإخفاء الشفوي(٢)؛ لصيرورة الميم إلى باء بها نوع من الأنفية خلال النطق؛ فلا يبقى منها إلا الغنة فقط. وعلة الإخفاء هنا أن صوتي الميم والباء لما اتحدا في المخرج، واشتركا في بعض الصفات ثَقُلَ الإظهار، وثقل الإدغام التام ، فتعين الإخفاء؛ لأنه يؤدي إلى سهولة النطق(٣)، من خلال الاقتصاد في الجهد العضلي المبذول في النطق.

الراء:

يبدو أن الراء لا تماثل غيرها من أصوات العربية إلا اللام، فتماثلها مماثلة رجعية كلية متصلة، وتدغم فيها، وقد ورد ذلك في الأمثلة القرآنية، فروي عن يعقوب الحضرمي، وأبي عمرو بن العلاء، نحو: يغفر لكم yagfil- lakum، والراء واللام لثويان، فماثلت الراء اللام صفة، ففقدت ما فيها من التكرار، وصار الهواء يخرج من جانبي اللسان، فاكتسبت صفة الجانبية، وبذلك ماثلت اللامَ صفة ومخرجاً، فصارت لاماً، فالتقت لامان الأولى ساكنة والثانية متحركة فوجب الإدغام.

وإذا كان إدغام الراء في اللام تجيزه القوانين الصوتية، فإن هذا الإدغام فيه خلاف بين علماء العربية القدامى، فذكر ابن يعيش أن سيبويه وأصحابه يمنعون إدغام الراء في اللام والنون، وإن كن متقاربات لما في الراء من التكرير، ولم يخالف سيبويه أحد من البصريين إلا ما روي عن يعقوب أنه كان يدغم الراء في اللام في قوله تعالى: يَغْفِرْ لَّكُمْ. وحكى ابن مجاهد عن أبي عمرو أنه كان يدغم الراء في اللام،

(١) انظر: مناهج البحث في اللغة، ص١٠٥

(٢) انظر: غاية المريد في علم التجويد، ص٧٤، والتمهيد في علم التجويد، ص١٤٤

(٣) انظر: غاية المريد في علم التجويد،ص٧٥

ساكنة كانت اللام أو متحركة، وأجاز الكسائي والفراء هذا الإدغام(١)، وقد ذكر ابن الحاجب النحوي (ت٦٤٦هـ) "أن نقل إدغام الراء في اللام أوضح وأشهر، ووجهه من حيث التعليل ما بينهما من شدة التقارب حتى صارا كالمثلين، بدليل لزوم إدغام اللام في الراء في اللغة الفصيحة، ولولا شدة التقارب لم يكن ذلك، وكان ذلك يقتضي أن تدغم في اللام لزوماً إلا أنه عارضه ما في الراء من التكرار، فلمح تارة فأظهر واغتفر تارة لشدة التقارب"(٢). ويرى السيوطي أن إدغام الراء في اللام جائز، وهو الأَصح(٣).

المبحث الرابع: أثر الأصوات المتوسطة في نمو المعجم العربي

يبدو أثر الأصوات المتوسطة في نمو الثروة اللفظية للغة العربية، من خلال أمرين؛ أولهما: دور هذه الأصوات في نشأة الكلمات الرباعية في العربية، من خلال المخالفة الصوتية عن طريق فك أحد الصوتين المتماثلين بأحد الأصوات المتوسطة (الراء والنون واللام والميم). وثانيهما: الإبدال، سواء أكان بين بعض هذه الأصوات وبعضها الآخر أم كان بينها وبين غيرها من الأصوات الأخرى التي يمكنها التبادل معها؛ وفقاً للقواعد الصوتية في العربية.

أولاً: دور الأصوات المتوسطة في نشأة الكلمات الرباعية من خلال المخالفة الصوتية:

تعريف المخالفة الصوتية:

هي تغير أحد الصوتين المتماثلين تماماً في كلمة، فيقلب أحدهما إلى صوت

(١) انظر: شرح المفصل: لابن يعيش، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه د.إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، ج٥/ ص٥٤٤، وجزء الآية الوارد الأحقاف ٤٦/ ٣١، والصف ١٢/ ٦١، ونوح ٤/ ٧١

(٢) الإيضاح في شرح المفصل، تحقيق وتقديم د.موسى بناي العليلي، مطبعة العاني، بغداد، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، ج٢/ ص٥٠٥، ٥٠٦

(٣) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج٣/ ص٤٨٩

آخر لتتم المخالفة بين هذين الصوتين المتماثلين(١). أو هي "تعديل الصوت الموجود في سلسلة الكلام بتأثير صوت مجاور، ولكنه تعديل عكسي يؤدي إلى زيادة مدى الخلاف بين الصوتين"(٢). ويغلب على الصوت المتغير "أن يكون من أصوات العلة الطويلة، [أو من أنصاف الحركات]، أو من الأصوات المتوسطة أو المائعة liquids، وهي اللام والميم والنون والراء"(٣).

الصوامت التي يقع فيها التخالف:

تقع المخالفة في كل الصوامت المتماثلة، بما فيها الأصوات المتوسطة، خاصة إذا وُضِع في الاعتبار نوعا المخالفة المتصلة والمنفصلة كما فعل كارل بروكلمان(٤). وهذا يعني أنه ليس هناك "أصوات تقبل التخالف وأخرى لا تقبل التخالف، وإنما تتفاوت نسبة الكلمات التي بها تخالف بالنظر إلى نظام اللغة الذى يسمح أو لا يسمح بتتابعات صوتية معينة كثرة أو قلة."(٥).

الصوامت التي يتم من خلالها التخالف:

أما الأصوات التي تتم من خلالها المخالفة في العربية الفصحى لتكوين الكلمات الرباعية، فهي: أنصاف الحركات والصوامت المتوسطة والصوامت الحلقية، فهذه الأصوات يستبدل أحدها بأحد الصامتين المتماثلين في عملية المخالفة(٦). وقد أضاف إليها د.سامر زهير بحرة سبعة أصوات أخرى، هي: "ك، س، ز، ض، ت،

(١) انظر: الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٢١٠، والتطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه: د.رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥م، ص٥٧.

(٢) دراسة الصوت اللغوي، ص٣٨٤.

(٣) انظر: الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، ص٢١١، والتطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، ص٥٧.

(٤) انظر: فقه اللغات السامية، ص٧٤-٧٦.

(٥) ظاهرة المخالفة الصوتية ودورها في نمو المعجم العربي: د.أحمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الزهراء، ص٢٥.

(٦) انظر: نشوء الفعل الرباعي في اللغة العربية: د.أحمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الزهراء، القاهرة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص٥٤، ٥٦، ٧٣، ٧٤.

ث، ب"، واستشهد على ذلك بعدد من الأمثلة(١).

ولكن هل كل هذه الأصوات التي تتم من خلالها المخالفة على درجة واحدة من الاستعمال؟ هذا ما يجيب عنه البحث فيما يلي.

مدى شيوع الأصوات المتوسطة في التخالف:

يبدو أن الأصوات المتوسطة (الراء والنون واللام والميم) هي الأكثر وقوعاً في المخالفة بين الصوتين المتماثلين في الكلمة. وقد ثبت في دراسة حديثة على ما يربو على ألفين وثمانمائة جذر رباعي جمعتها من أضخم معاجم العربية، وهو لسان العرب،- ثبت فيها أنه على الرغم من التفاوت الكبير "بين الصوامت من حيث نسب استعمالها في تحقيق المخالفة، فقد كانت الراء أكثرها استعمالاً في هذه العملية، تليها النون فاللام فالميم"(٢).

ويرى برجشتراسر أن النون هي الأكثر وقوعاً في التخالف، تليها الراء، فيقول: "تَخالف الحروف المشددة بقلب أول حرف منها إلى النون هو الأكثر وقوعاً. وقد يصير النصف الأول من الحرف المشدد: راءً أو لاماً، نحو كلمة "فرقع"، أصلها: فقَّع بتشديد القاف، وكلمة: "بلطح" أي ضرب بنفسه الأرض، أصلها: بطَّح، بتشديد الطاء"(٣). وسواء أكانت الراء هي الأكثر وقوعاً في التخالف أم النون، فإن هناك نتيجة مفادها أن أكثر الأصوات شيوعاً في حدوث المخالفة ونشوء الكلمات الرباعية في العربية هي الأصوات المتوسطة السلسة أو اللينة. فما السبب في ذلك؟

السبب في ذلك يتعلق "بطبيعة التشكيل الصوتي للكلمة الأصلية التي تَماثل فيها صامتان، فقد ظهر أن اللغة كانت تميل إلى استخدام أحد الموائع أو أنصاف

(١) انظر: قانون المخالفة الصوتية وأثره في نمو الثروة اللفظية للعربية الفصحى: د.سامر زهير بحرة، بحث منشور بمجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، المجلد ٣٢، العدد٣، ٢٠١٠م، ص٣٦.

(٢) قانون المخالفة الصوتية وأثره في نمو الثروة اللفظية للعربية الفصحى، ص٣٦، وانظر: ص٢٧

(٣) انظر: التطور النحوي للغة العربية، ص٣٥

الصوائت بديلاً لأحد الصامتين المتماثلين، إلا إذا كان الصامت المضعف نفسه واحداً من أصوات هاتين المجموعتين، أي: "ر، ل، م، ن، ي، و"، أو مجاوراً لأحدها"(١)، نحو:

١- جمَّر، زلَّق، مزنَّر، صارت على الترتيب: جعمر، زحلق، مزنهر.

٢- عبَّس، عهَّب، عقَّبه، فطَّح، صارت على الترتيب: عنبس، عوهب، عرقبه، فرطح(٢).

فالمجموعة الأولى لما جاءت مضعفة العين بحرف متوسط في الكلمات: جمَّر، زلَّق، مزنَّر، وقعت المخالفة فيها بحرف غير متوسط، فصارت: جعمر أي جمع، زحلق، مُزَنْهر إليَّ بعينه، وهو شدة النظر وإخراج العين. أما المجموعة الثانية فإنها لما جاءت مضعفة العين بحرف غير متوسط في الكلمات: عبَّس، عهَّب، عقَّبه، فطَّح، وقعت المخالفة فيها بحرف متوسط، فصارت: عنبس بمعنى كرَّه وجهَه، عوهب بمعنى ضلل، عرقبه أي ضرب عرقوبه، فرطح أي بسط وعرَّض.

على أن ذلك لم يمنع من استخدام أحد الأصوات المتوسطة أو أنصاف الحركات في مخالفة الصامت المضعف، وإن اشتملت الكلمة الأصلية التي تحتوي التضعيف على واحد من هذه الأصوات، نحو: الضغَّام والضرغام: الأسد، كَصَّم وكَلْصَم: فرَّ وأدبر، صمَّع وصَوْمَع البناء: أعلاه، كَعَّر وكَيْعَر: سمن وحدَر لحمه، التَّلَهُّق والتلَهْوُق: التملق والتقعر في الكلام.

فهذه الكلمات المضعفة العين: الضغَّام، كصَّم، صمَّع، كعَّر، التَّلهُّق، على الرغم من اشتمالها على أحد الأصوات المتوسطة؛ الميم في الكلمات الثلاثة الأولى، والراء في الكلمة الرابعة، واللام في الكلمة الخامسة، فإن المخالفة فيها تمت عن

(١) انظر: قانون المخالفة الصوتية وأثره في نمو الثروة اللفظية للعربية الفصحى، ص٣٦، ٣٧.

(٢) انظر: قانون المخالفة الصوتية وأثره في نمو الثروة اللفظية للعربية الفصحى، ص٣٦، ٣٧.

طريق أحد الأصوات المتوسطة أو أنصاف الحركات، ويتحكم في اختياره التشكيل الصوتي للكلمة.

دور المخالفة الصوتية في نشأة الكلمات الرباعية من خلال الأصوات المتوسطة:

يبدو أن كثيراً من اللغويين المحدثين يرون أنه لا يوجد في العربية جذور رباعية أصيلة؛ لأن ما فيها رباعي الجذر يمكن رده إلى جذور ثلاثية(١)، وإن كان هؤلاء المحدثون يختلفون في كيفية ردها ونشأتها، وفي آلية اشتقاقها من أصولها(٢).

وما يهمنا هنا هو الرأي الذي "ذهب إلى أن الزيادة في كثيرٍ من الكلمات ذات الجذور الثلاثية لم تنشأ لمعنى يضيفه المتكلم، بل نتيجة لتغيرات صوتية تركيبية أصابت الكلمات الثلاثية في سياقات لغوية محددة، فجعلتها رباعية الجذور، وذلك كالفعل فرقع: غمز مفاصل أصابعه، الذي تولد من الفعل "فقَّع" بفك التضعيف فيه والتعويض عن القاف الأولى الساكنة راءً"(٣). فالصوت الذي تغير هنا في هذه الكلمة، هو صوت القاف الأولى الساكنة، وهي إحدى القافين المدغمة إحداهما في الأخرى، والصوت الذي تغيرت إليه هذه القاف أو خولفت إليه هو الراء، وهكذا تولد عن فك الإدغام وتغيير الجزء الأول من الصامت المضعف إلى صامت آخر مخالف له كلمة جديدة مكونة بنيتها من أربعة صوامت، وهذا النوع من التغيرات التركيبية يسمى المخالفة الصوتية.

ويبدو أن للأصوات المتوسطة دوراً كبيراً في نشأة الكلمات الرباعية من خلال المخالفة بين الصوتين المتماثلين في الكلمة عن طريق أحد هذه الأصوات، كما

(١) انظر: مناهج البحث في اللغة، ص١٨٤-١٨٦، ومقدمه لدرس لغة العرب وكيف نضع المعجم الجديد: عبدالله العلايلي، المطبعة العصرية، القاهرة، ص٢٣١، ٢٣٣

(٢) انظر: نشوء الفعل الرباعي في اللغة العربية، ص٥٢، ٦٨، ٦٩، ومقدمه لدرس لغة العرب، ص٢٣١، ٢٣٣. والفلسفة اللغوية والألفاظ العربية: جرجي زيدان، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧، ص١٠٦.

(٣) انظر: قانون المخالفة الصوتية وأثره في نمو الثروة اللفظية للعربية الفصحى، ص٣٠.

سيتضح فيما يلي.

نماذج المخالفة عن طريق الأصوات المتوسطة (الراء والنون واللام والميم):

أ- المخالفة عن طريق الراء:

١- مخالفة الميم الأولى للثانية عن طريق الراء، نحو: خمَّش وخرمش: خدش.

فالأصل في هذا المثال "خَمَّش"، بتضعيف الميم، وقد تمت المخالفة بين الميمين بقلب الأولى راء، وهي مخالفة مخرجية وصفية. والدليل على أن الأصل خمَّش قول ابن منظور: "الخَمْشُ: الخدْشُ فِي الْوَجْهِ، خَمَشَه .... وخَمَّشه"(١)، ثم جاءت "الخَرْمَشة: الإفساد والتشويش"(٢)، عن طريق المخالفة بين صوتي الميم. ومما يؤكد ذلك ما رواه الجواليقي (ت٥٣٩هـ) من أن عوام عصره، كانوا يقولون "خرمش" في "خمَّش"، كما كانوا يقولون في مِمْطر: مِنْطر(٣).

والمخالفة في "منطر" مخالفة مخرجية فقط، وتعد النون والراء هنا ألوفونات مختلفة لفونيم الميم السامية(٤)، والميم العربية على حد سواء. وهذا من التطور المقيد في العربية الفصحى.

ويرى الدكتور صلاح الدين حسنين أن الميم تتحول "في وسط الكلمة إلى نون نتيجة لقانون المخالفة إذا تليت بميم أخرى، نحو: منطر وممطر، أو إذا سبقت أو تليت بصوت أسناني أو لثوي أو صفيري، ويحدث هذا في لهجات شرق الجزيرة العربية، ويشبه [ما حدث في] الأكادية تماماً، رُوِي عن أبي عمرو أن الدِّمْدم لغة بني أسد والدندن لغة تميم. جاء في اللسان أن أهل الحجاز يسمون الجان من الحيات الأيم، وبنو تميم يقولون: الأين. ورد عن ابن الفرج أنه سمع جماعة من

(١) لسان العرب، خمش مج٦ / ص٢٩٩

(٢) لسان العرب، خرمش مج٢ /ص١١٤٦

(٣) انظر: ما تلحن فيه العامة، نشر عبد العزيز الميمني (في ثلاث رسائل)، القاهرة، ١٣٤٤هـ، ص١٣٤-١٣٩

(٤) انظر: المدخل إلى علم الأصوات دراسة مقارنة، ص٨٨

قيس يقولون : فلان يعثم ويعثن، أي يجتهد في الأمر"(١).

ويبدو أن الدكتور صلاح حسنين قد خلط بين المخالفة والإبدال، حينما عد من المخالفة تحول الميم إلى نون إذا سبقت أو تليت بصوت أسناني أو لثوي أو صفيري، فأين المخالفة في الدمدم والدندن، والأيم والأين، ويعثم ويعثن، فليست في هذه الأمثلة أي مخالفة مخرجية أو وصفية، وهذه النماذج تنتمي إلى الإبدال اللغوي؛ لوجود قرابة صوتية بين الصوت المبدل والصوت المبدل منه، وقد أشار إلى ذلك الأزهري فقال: "وقد عاقبت العرب بين الميم والنون في حروف كثيرة لقرب مخرجيهما، مثل الأيم والأين، والغيم والغين، والقعم والقعن"(٢).

٢- مخالفة النون الأولى للثانية عن طريق الراء، نحو: قُنَّبيط وقرنبيط.

فالأصل هنا" قُنّبيط"، والدليل على ذلك، ما جاء في أحد كتب تصحيح التصحيف: "ويقولون: قُرنَبيط. والصواب قُنّبيط واحدتها قُنّبيطة"(٣). ثم أبدلت النون الأولى راء عن طريق المخالفة، فصارت: قرنبيط، وتعد المخالفة هنا وصفية؛ لاشتراكهما في مخرج اللثوية.

٣- مخالفة أول الصامتين المضعفين كالطاء، أو الشين، أو الكاف، أو القاف، عن طريق الراء، نحو: قطَّم الشيء وقرطمه: قطعه(٤)، فشَّح وفرشح: فرج ما بين رجليه(٥)،

(١) المدخل إلى علم الأصوات دراسة مقارنة، ص٨٧، وانظر: لسان العرب، دمدم مج١٢/ ص١٠٩، وعثم مج١٢/ص٣٨٥، والمراد بالأيْن والأيْم هو الذَّكَر مِنَ الْحَيَّات، والنُون بدلٌ مِنَ اللام، انظر: لسان العرب، أيم مج١٢/ ص٤٠، وأين مج١٣/ ص٤٤، بيد أني لم أجد النسبة المذكورة في اللسان، والموجود نسبة الأَفْعَو إلى أَهل الْحِجَاز: يريدون الأفعى، قلبوا الألف واواً، فعا مج١٥/ ص١٥٩.

(٢) تهذيب اللغة ج١/ ص١٧١، وانظر: لسان العرب، قعن مج١٣/ ص٣٤٥

(٣) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف: صلاح الدين خليل الصفدي، حققه وعلق عليه وصنع فهارسه: السيد الشرقاوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ص٤٢٢

(٤) انظر: لسان العرب، قطم مج١٢/ ص٤٨٩، وقرطم المجلد نفسه، ٤٧٦

(٥) انظر: لسان العرب، فشح مج٢/ ص٥٤٤، وفرشح المجلد نفسه، ص٥٤٢

وبكَّعه بالسف وبركعه: ضربه(١)، بقَّط في الجبل وبرقط: إذا صعد(٢).

ففي المثال الأول خولف بين صوتي الطاء في "قطَّم" بإبدال الأولى منهما راءً، فصارت "قرطم"، وفي المثال الثاني "فشَّح" خولف بين صوتي الشين عن طريق إبدال الأولى منهما راء، وفي المثال الثالث "بكَّع"، خولف بين صوتي الكاف عن طريق إبدال الأولى منهما راء، وفي المثال الأخير خولف بين صوتي القاف في "بقَّط" عن طريق إبدال الأولى منهما راء. وتعد المخالفة في كل هذه الكلمات مخالفة مخرجية ووصفية. وقس على ذلك أيضاً: ضغَّام وضرغام، ومكسَّف ومكرسف، أي مُعَرْقَب، وجذَّم وجرذم، أي أسرع(٣)، وغير ذلك من الكلمات. فالمخالفة هنا لها دور كبير في نشأة هذه الكلمات الرباعية، وقد أدى ذلك إلى نمو الثروة اللفظية للغة العربية الفصحى.

٤- مخالفة الجيم الأولى للثانية عن طريق الراء، نحو: فَرْجَحَ في مَشْيِهِ: تَفَحَّجَ(٤).

فالأصل الأول لهذه الكلمة، هو "فحَّج"، أي باعدَ بين الساقين، والدليل على ذلك ما جاء في المعجم: "الفَحَجُ: تَباعُدُ ما بينَ الساقَيْن في الإنسان والدابة"(٥)، و"فَحَّجَ رِجْليه: أَي فَرَّقَهُما"(٦). ويبدو أن هذا الأصل حدث له قلب مكاني، فصارت الكلمة "فجَّح"، بالمعنى نفسه، ثم وقعت المخالفة بين صوتي الجيم، عن طريق إبدال الجيم الأولى راء، فصارت الكلمة "فرجح"، وهذه مخالفة مخرجية ووصفية.

(١) انظر: لسان العرب، بكع مج٨/ ص٢٠، وبركع المجلد نفسه، ص١٠

(٢) انظر: لسان العرب، بقط مج٧/ ص٢٦٤

(٣) انظر: قانون المخالفة الصوتية وأثره في نمو الثروة اللفظية للعربية الفصحى، ص٣٥

(٤) انظر: المحيط في اللغة: للصاحب بن عباد، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ج٣/ص٢٦٠.

(٥) كتاب العين، ج٣/ ص٨٥

(٦) انظر: لسان العرب، فحج مج٢/ص ٣٤٠

ولعل كلمة "فشَّح" أصلها "فجَّح"، فحدث إبدال لصوت الشين بالجيم، لأن معناهما واحد، وهو باعدَ بين رجليه، وقواعد الأصوات تسمح بذلك، فالشين والجيم متجانسان مخرجاً، فكل منهما حنكي صلب. ثم خولفت الشين الأولى عن طريق الراء، فصار عندنا: فشَّح وفرشح: فرج ما بين رجليه(١). وربما يرجع ذلك إلى اختلاف اللهجات العربية.

ب- المخالفة عن طريق النون:

١- مخالفة الباء الأولى للثانية في كلمة "سنبلة" عن طريق النون:

فأصل هذه الكلمة "سبُّلة"، بتضعيف الباء، ثم أبدلت الباء الأولى منهما نوناً عن طريق المخالفة بين صوتي الباء المتماثلين. ويؤيد ذلك مقارنة هذه الكلمة بنظيرتها في اللغات السامية، فهي في العبرية sibboolet، وفي الآرامية sebbeltaa بالباء المشددة، أي الباءين، وصارت أولاهما في العربية نوناً(٢). وقد عزا الزبيدي الكلمة الحادثة "سنبلة" إلى بني تميم، فقال: " والسُّنْبُلَةُ، بالضَّمّ: الزَّرْعَةُ الْمائِلَةُ، .... لُغَةُ بني تَميم،....والسَّبَلُ: السُّنْبُلُ، لُغَةُ الحِجازِ ومِصْرَ قَاطِبَة"(٣).

ومن ذلك أيضاً كلمة "عدنبس"، وأصلها عدبَّس(٤)، وهي تطلق على الأسد عند أهل الأندلس في القرن الرابع الهجري، على ما ذكره الزبيدي(٥). ومثل ذلك: العَنْبَس الأسد، وأصلها: العبَّاس، ومعناها الأسد، وإن كان الأسد الذي تهرُب منه الأُسْد(٦).

(١) انظر: لسان العرب، فشح مج٢ / ص٥٤٤، وفرشح المجلد نفسه، ص٥٤٢

(٢) انظر: التطور النحوي للغة العربية، ص٣٨

(٣) انظر: تاج العروس، تحقيق د.عبد الفتاح الحلو، طبعة الكويت، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، سبل ج٢٩ / ص١٦٣

(٤) انظر: تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، ص٣٧٥

(٥) انظر: لحن العوام، تحقيق د.رمضان عبد التواب، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١٦١

(٦) انظر: لسان العرب، عبس مج٦ /ص١٢٦، وعنبس مج٦ /ص١٥٠، ١٥١

٢- مخالفة الفاء الأولى للثانية في كلمة "قُنْفُذ" عن طريق النون:

فأصل هذه الكلمة "قُفُّذ"، بتضعيف الفاء، وقد تم إبدال الفاء الأولى نوناً عن طريق المخالفة بين صوتي الفاء المتماثلين، فصارت "قُنْفُذ". ويؤيد ذلك مقارنة هذه الكلمة بنظيرتها في اللغتين العبرية والآرامية، فهي في العبرية: kippod(١)، وفي الآرامية Kuppdaa بالباء المشددة المهموسة، وصارت أولاهما في العربية نوناً(٢).

٣- مخالفة الطاء الأولى للثانية عن طريق النون، نحو: فطّيسة الخنزير وفنطيسته، وجاء في نظم الفصيح: فنطيسة الخنزير وفرطيسة الخنزير(٣). وحظ وحنظ: النصيب من الفضل والخير.

ففي المثال الأول يبدو أن الأصل هو "فطّيسة"، ويؤيد ذلك قول ابن فارس: "الفاء والطاء والسين، منه الفطس في الأنف: انفراشُه، وفطّيسة الخنزير أنفه"(٤). ثم حدثت مخالفة بين الطاءين، فقلبت الأولى منهما إلى أحد الأصوات المتوسطة، فقلبها قوم إلى النون وهم الأكثرية، قال ابن منظور عن الفنطيسة: "رُوِي عن أحمد بن يحيى قال: هي الشفة من الإنسان، ...، ومن الخنزير الفنطيسة، كذا رواه على فنعيلة، والنون زائدة"(٥). على حين قلبها آخرون إلى صوت الراء فقالوا: فرطيسة. وعلى هذا الأساس فظهور كلمتي فنطيسة وفرطيسة ليس ناتجاً عن الإبدال، إنما هو ناتج عن المخالفة الصوتية في كلمة فطّيسة، فقوم خالفوا بالنون، وآخرون خالفوا بالراء.

(١) انظر: التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، ص٣٨

(٢) انظر: التطور النحوي للغة العربية، ص٣٤

(٣) لابن أبي الحديد المدائني، حققه وقدم له وعلق عليه د. محمد بدوي المختون، مجلة معهد المخطوطات، جامعة الدول العربية، العدد ٢٥، الجزء الأول، ١٩٧٩م، ص١٦٢

(٤) مقاييس اللغة: ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، ج٤/ص٥١١

(٥) لسان العرب، فطس مج٦/ص١٦٥.

وفي المثال الثاني الأصل: حظّ، قال الخليل: "الحظ: النَّصيبُ من الفَضْل والخير....، وناس من أهل حِمْص يقولون: حَنْظ، وتلك النُونُ عندهم غُنَّةٌ ليست بأصلية. وإنّما يَجري على ألْسنتهم في المُشَدَّد، نحو الرُزّ يقولون: رُنْز، ونحو أُتْرُجَّة يقولون أتْرُنْجة، ونحو اجّار [أي السطح] يقولون: انّجار، فإذا جَمَعوا تركوا الغُنَّة ورجعوا إلى الصِحَّة، فقالوا: أجاجير وحُظوظ"(١). وهذا يعني أن أهل حمص خالفوا بين الصوتين المتماثلين، فجعلوا أولهما نوناً، فصارت حظّ إلى حنظ، ورزّ إلى رنز.

٤- مخالفة الراء الثانية للأولى في كرناسة عن طريق النون:

فأصل هذه الكلمة "كرَّاسة"، فتمت مخالفة الراء الثانية بالنون، فصارت "كرناسة". وقد حكى الزبيدي أن أهل الأندلس في القرن الرابع الهجري كانوا يقولون: كرناسة في كراسة(٢). ويلاحظ هنا أن الصوت المضعف والصوت المخالف به من الأصوات المتوسطة. وربما تتم المخالفة عن طريق أصواتٍ صامتة أخرى من غير الأصوات المتوسطة، إذا كان الصوت المضعف أحد الأصوات المتوسطة، نحو: فرَّك التي صارت فرتك(٣)، عن طريق مخالفة الراء الثانية بالتاء.

٥- مخالفة الجيم الأولى للثانية في الكلمات "إنجاص وإنجانة وأترنج" عن طريق النون:

فهذه الكلمات أصلها: إجَّاص وإجَّانة وأترجّ على الترتيب، وقد تم إبدال الجيم الأولى في كل منها نوناً عن طريق المخالفة بين صوتي الجيم المتماثلين، فصارت: إنجاص وإنجانة وأترنج. وقد ذكر الكسائي (ت١٨٩هـ) أن الناس في عصره كانوا يزيدون النون في هذه الكلمات: إجاص للكمثرى إنجاص، وفي أترجّ أترنج، وفي

(١) كتاب العين، مج٣/ ص٢٢

(٢) انظر: لحن العوام،ص٣٥

(٣) انظر: المدخل إلى علم الأصوات دراسة مقارنة، ص٨٧

إجانة إنجانة، وقال: يقال: أترجّ وإجّاص وإجّانة(١). ومثل ذلك أيضاً: الإجّار السطح بلغة الشام والحجاز، والإنجار لغة يمانية فيه(٢).

٦- المخالفة بالنون ودورها في تكوين صيغة المطاوعة "انفعل":

يبدو أن للمخالفة بالنون أثراً كبيراً في تكوين صيغة المطاوعة "انفعل"؛ فحينما يُصاغ من الفعل "ظلم" مثالٌ على "افتعل" يكون "اظتلم"، وهذه الصورة الأصلية تحدث فيها مماثلة بين التاء والظاء فتصير "اظطلم"، ثم تصير "اظّلم" بعد تأثير المماثلة التقدمية الكلية المتصلة. وهذه الصورة اشتملت على حرف مضعف، وهو مستثقل، فيخالف أحدهما بحرف من الحروف السهلة؛ النون وأخواتها، وقد أدى هذا إلى ظهور صورة جديدة للمطاوعة هي "انظلم" التي روتها المعاجم العربية، يقول إبراهيم أنيس: "وليس ببعيد أن تكون صيغة المطاوعة "انفعل" فرعاً أو تطوراً للصيغة الأخرى للمطاوعة "افتعل" "(٣).

ومما يؤيد أن صيغة "انفعل" هي الصيغة الفرعية -من وجهة نظر د.أنيس- قلة شيوعها في الاستعمال القرآني، فقد ورد منها خمسة عشر مثلاً، واقتصرت بداية أفعالها الثلاثية على سبعة أحرف هجائية، هي: الباء والخاء والشين والصاد والطاء والفاء والقاف، نحو: انبعث، منخنقة، انشق، انصرف، انطلق، انفطر، انقلب، ومعظم هذه الأمثلة روت لها المعاجم صيغة أخرى على وزن "افتعل". أما صيغة "افتعل" فهي الصيغة الأصلية؛ لشيوعها في الاستعمال القرآني، فقد ورد منها ما يزيد على ثمانين مثالاً، تبدأ أفعالها الثلاثية بكل حروف الهجاء ما عدا الثاء

(١) انظر: ما تلحن فيه العامة: للكسائي، سلسلة كتب لحن العامة (٢)، حققها وقدم لها ووضع فهارسها د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة- دار الرفاعي بالرياض، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٢م، ص١١٦، ومن الجدير بالذكر أن اسم هذه الرسالة كما ورد في متنها هو: ما تلحن فيه العوام، انظر: ص٩٩.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ج١/ ص٦٣، وكتاب العين، ج٦/ ص١٠٧

(٣) حروف تشبه الحركات: د.إبراهيم أنيس، بحث بمجلة مجمع اللغة العربية القاهري، ١٩٦٣م، ج١٦/ ص١٦

والـذال والظاء والمـيم، نـحو: اتـخـذ، ابـتـدع، اتبع، اجـتبى، احـترق، اكـتسب، اصطفى، التقط ....إلخ(١).

ويبدو أن د.أنيس لا يرى معنى لصيغة افتعل إلا المطاوعة، وهذا غير صحيح، فهي تأتي أيضاً لمعاني أخرى، منها الاتخاذ والمفاعلة والتصرف، ومجيئها للمطاوعة قليل، ويظهر هذا من أمثلة سيبويه، فالباب في المطاوعة انْفَعَلَ، وَافْتَعَلَ قليلٌ(٢).

ج- المخالفة عن طريق اللام:

١- مخالفة الطاء الأولى للثانية عن طريق اللام، نحو: فطَّح وفلطح

فالأصل هنا فطَّح، جاء في اللغة: "فَطَحَ العُودَ.... وفَطَّحَه: بَراه وعَرَّضَه"(٣)، و"فَطَحَه، كـمَنَعَه، فَطْحاً: جَعَلَه عَرِيضاً .... كفَطَّحه تَفطيحاً"(٤). ثم حدثت مخالفة بين الطاءين، فقلبت الأولى منهما إلى أحد الأصوات المتوسطة، فقلبها قوم إلى اللام فقالوا: فلطح، وقلبها آخرون إلى صوت الراء فقالوا: فرطح.

وعلى هذا الأساس فظهور كلمتي فلطح وفرطح ناتج عن المخالفة الصوتية فى كلمة فطَّح. وقد رُويت الصيغتان عن العرب: "رأْس مُفَلْطَحٌ وفِلْطاح: عريضٌ، وَمِثْلُهُ فِرْطاحٌ، بِالرَّاءِ....، ابْنُ الفَرَج: فَرْطَح القُرْصَ وفَلْطَحه إذا بَسَطَهُ"(٥). وإن كان الزبيدي نص على أن "الصَّحِيح فِيهِ عِنْد المحقِّقِين من أَهل اللُّغَة أَنّه مُفلْطح، بِاللامِ"(٦) لا بالراء نقلاً عن ابن بري. وربما تحمل الصحة هنا على كثرة ورود المخالفة بين الطاءين باللام أكثر من الراء.

(١) انظر: حروف تشبه الحركات، ج١٦/ ص١٦، ١٧

(٢) انظر: الكتاب، ج٤/ ص٦٥، ٧٤، ٧٥، وشرح شافية ابن الحاجب، ج١/ ص١٠٨

(٣) لسان العرب، فطح مج٢/ ص٥٤٦

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة حكومة الكويت طبعة ثانية مصورة، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م، فطح ج٧/ ص٢٢

(٥) لسان العرب، فلطح مج٢/ ص٥٤٩

(٦) تاج العروس من جواهر القاموس، فلطح ج٧/ ص٣٠

د- المخالفة عن طريق الميم:

١- مخالفة الراء الثانية للراء الأولى عن طريق الميم، نحو: هرَّط وهرمط عرضه: وقع فيه.

فالأصل في هذا المثال هرَّط بتضعيف الراء، وقد تم إبدال الراء الثانية ميماً عن طريق المخالفة بين صوتي الراء المتماثلين. والدليل على أن الأصل "هرَّط" قول ابن منظور: "هَرْمَطَ عِرْضه: وَقَعَ فِيهِ وَهُوَ مِثْلُ هرَطه"(١) وهرَّطه.

٢- مخالفة السين الأولى للسين الثانية عن طريق الميم، نحو: الرسّ والرمس: الدفن.

فالأصل هنا الرسّ بتضعيف السين، وقد تم إبدال السين الأولى ميماً عن طريق المخالفة بين صوتي السين المتماثلين. قال ابن منظور: "رُسَّ الميتُ أَي قُبِر"(٢)، وذكر أيضاً: رَمَسه .... دَفَنَهُ وسَوَّى عَلَيْهِ الأَرض، وَالرَّمس: مَا يُحْثَى مِنَ التُّرَابِ عَلَى الْقَبْرِ، وأَصلُ الرَّمْسِ: السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ(٣)، فالصيغة الأصلية هي المضعفة، والصيغة الحادثة هي الصيغة التي حدثت فيها المخالفة وفقاً لقانون السهولة والتيسير.

ملاحظة:

يلاحظ فيما سبق أن العربية الفصحى تستخدم الصامتين اللثويين؛ الأنفي والترددي (النون، والراء) بشكل أكبر لتحقيق عنصر المخالفة، وهذا يتفق وأحدث ما توصل إليه علم اللغة الحديث من "أن اللغات تستخدم السواكن الأنفية والترددية بشكل أكبر لتحقيق [هذا] العنصر"(٤). ولهذا يفترض Hurwitz أن تكون "الكلمات العربية الكبيرة التي تشتمل على راءٍ أو لامٍ أو نونٍ أو ميمٍ قد تولدت نتيجة عامل المخالفة بين صوتين متماثلين؛ [ذلك لأنه] توجد غالباً مقابلات

(١) انظر: لسان العرب، بقط مج٧/ ص٢٦٤

(٢) لسان العرب، رسس مج٦/ ص٩٨

(٣) انظر: لسان العرب، رمس مج٦/ ص١٠١

(٤) انظر: دراسة الصوت اللغوي، ص٣٨٤.

مضعفة [لهذه الصيغ]، وهذا يعني أن العقل الساميَّ كان يعتبر هذه الصيغ المزيدة مقابلة للصيغ المضعفة"(١).

أسباب وقوع المخالفة:

ثمة سببان لحدوث المخالفة، أولهما عضوي، وثانيهما نفسي. فالسبب العضوي يتمثل في ميل المتكلم إلى تيسير الجهد العضلي المبذول من أعضاء النطق عند إنتاج صوتين متماثلين متجاورين في كلمة واحدة، فهذا يتطلب مجهوداً عضليّاً أكبر مما يلزم في إنتاج صوتين متخالفين، فيتجنب المتكلم هذه الصعوبة ويستبدل بأحد الصوتين المتماثلين صوتاً آخر؛ تيسيراً على جهاز النطق، وطلباً للخفة، والغالب في هذ الحرف أن يكون من أصوات العلة الطويلة، أو أنصاف الحركات، أو الأصوات المتوسطة، وهي الأصوات التي لا يتطلب إنتاجها مجهوداً عضليّاً كبيراً(٢).

وقد سبق سيبويه علماء اللغة المحدثين في ذلك، عند حديثه عن التضعيف، حيث يقول: "اعلم أن التضعيف يثقل على ألسنتهم، وأن اختلاف الحروف أخف عليهم من أن يكون من موضع واحد. ألا ترى أنهم لم يجيئوا بشيءٍ من الثلاثة على مثال الخمسة نحو: ضربَّب.....، وذلك لأنه يثقل عليهم أن يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد ثم يعودوا له"(٣). فسيبويه أدرك بحسه اللغوي أن تضعيف الصوامت وتوالي الأمثال كان سبباً في التحول عن أحد الأصوات المتماثلة إلى آخر مختلف عنه، وقد عقد لذلك فصلاً بعنوان: "هذا باب ما شذَّ فأبدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف، وليس بمطرد، وذلك قولك: تسريت، وتظنيت، وأمليت"(٤)، والأصل: تسرَّرت، وتظنَّنت، وأمللت، فأبدل الصامت

(١) دراسة الصوت اللغوي، ص٣٨٤، ٣٨٥.

(٢) انظر: التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، ص٥٧، وبحوث ومقالات في اللغة، ص٥٥

(٣) الكتاب، ج٤ /ص٤١٧

(٤) الكتاب، ج٤ /ص٤٢٤

الأخير من الأصوات المتماثلة ياءً؛ لتيسير النطق.

والسبب غير العضوي (النفسي) تنبه إليه برجشتراسر، وهو أن "المتكلم يرجو أن يؤثر في نفس السامع تأثيراً زائداً، فلا يكتفي بالضغط على الحرف وتشديده، بل يضيف إليه حرفاً آخر لزيادة التأثير"(١). ولعل هذا ما ألمح إليه هنري فليش عند تعليله لمخالفة التضعيف في الصيغة "فعَّل"، كما في فقَّع وفرقع، وجدَّل وجندل بمعنى صرع، فقد ذكر أن "المخالفة هنا لم تتدخل لعلاج صعوبة نطقية، وإنما سببها هو محاولة التأثير في داخل الكلمة؛ لتضخيمها وتكبير حجمها"(٢)، ومن ثم استغلال المخالفة في منح الكلمة شحنة تعبيرية أكبر.

وقد سبق المستشرقين ابنُ فارس في الوقوع على هذا المعنى، في كتابيه الصاحبي والمقاييس، وإن لم يدرك عمل المخالفة الصوتية بالمعنى الذي يعنيه المحدثون، فيقول: " ومن سُنن العرب الزّيادة في حروف الاسم، ويكون ذَلكَ إما للمبالغة وإما للتشويه والتقبيح....، يقولون للبعيد مَا بَيْنَ الطرفين المفرط الطول "طِرِمّاح"، وإنما أصله من "الطَّرَح" وهو البعيد، لكنه لما أفرط طوله سُمي طرمّاحاً، فشُوّه الاسم لما شوهت الصورة"(٣). ويقول أيضاً في موضع آخر: "وَمِنْ هَذَا الْبَاب مَا يَجِيءُ عَلَى الرُّبَاعِيِّ وَهُوَ مِنَ الثُّلاثِيِّ ....، لَكِنَّهُمْ يَزِيدُونَ فِيهِ حَرْفاً لِمَعْنًى يُرِيدُونَهُ مِنْ مُبَالَغَةٍ، كَمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي زُرْقُمٍ [للشديد الزّرق] وَخَلْبَنٍ. لَكِنَّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ تَقَعُ أَوَّلاً وَغَيْرَ أَوَّلٍ"(٤).

(١) التطور النحوي للغة العربية، ص٣٥

(٢) العربية الفصحى دراسة في البناء اللغوي، تعريب وتحقيق وتقديم د.عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٢٠٥، وانظر: ص ١٣٣، ١٣٤

(٣) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، حققه وضبط نصوصه، د.عمر فاروق الطبَّاع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان،ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ص ١٠١، ١٠٢

(٤) مقاييس اللغة، ج١/ ص٣٣٢، وانظر: الصاحبي في فقه اللغة، ص١٠٢

ومن الأمثلة التي يستشهد بها على صحة مذهبه المصادر: البَّرْغثة، والبَّرْجمة، والبَلْعَك، والبلقع وغيرها من الكلمات الكثيرة. فالراء زائدة في الكلمتين الأولى والثانية، واللام زائدة في الكلمتين الثالثة والرابعة. فالْبَرْغَثَةُ "الرَّاءُ فيه زَائِدَةٌ وَإِنَّمَا الأَصْلُ الْبَاءُ وَالْغَيْنُ وَالثَّاءُ. وَالأَبْغَثُ مِنْ طَيْرِ الْمَاءِ كَلَوْنِ الرَّمَادِ. فَالْبَرْغَثَةُ لَوْنٌ شَبِيهٌ بِالطُّحْلَةِ"(١). فالراء هنا زائدة؛ لأنه ربط بين كلمتي البرغثة والأبغث دلاليًّا، وجعل اشتقاق البرغثة من بغث بزيادة الراء لما ذكره من إرادة المبالغة في المعنى.

ولعل الأقرب أن يقال: إن الراء في كلمة "البرغثة" ليست إلا الغين الأولى في الفعل الثلاثي المضعف "بغَّث"، أبدلت راءً عن طريق المخالفة الصوتية، ثم اشتُق من الفعل الجديد مصدر بزنة المصادر الرباعية، وهو البرغثة(٢).

ومثل ذلك الْبَرْجَمَةُ، وهي "غِلَظُ الْكَلامِ: فَالرَّاءُ زَائِدَةٌ، وَإِنَّمَا الأَصْلُ الْبَجْمُ. قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: بَجَمَ الرَّجُلُ: إِذَا سَكَتَ مِنْ عِيٍّ أَوْ هَيْبَةٍ،.... ومن ذلك النَّاقَةُ (الْبَلْعَكُ) وَهِيَ الْمُسْتَرْخِيَةُ اللَّحْمِ. وَاللامُ زَائِدَةٌ، وَهُوَ الْبَعْكُ وَهُوَ التَّجَمُّعُ. وَمِنْ ذَلِكَ (الْبَلْقَعُ) الَّذِي لا شَيْءَ بِهِ. فَاللامُ زَائِدَةٌ، وَهُوَ مِنْ بَابِ الْبَاءِ وَالْقَافِ وَالْعَيْنِ"(٣).

وإذا كان ابن فارس جعل اشتقاق البرجمة من بجم بزيادة الراء، والبلعك من بعك، والبلقع من بقع، بزيادة اللام في كل منهما، لإرادة المبالغة في المعنى، فلعل الأقرب أن يقال: إن التطور في هذه الكلمات جاء عن طريق المخالفة الصوتية بإبدال الصوت الأول من العين المضعفة في الكلمات الثلاثية: بَجَّم، بَعَّك، بَقَّع صوتاً آخر مخالفاً، فصارت الجيم الأولى راءً في الكلمة الأولى "برجم"، وصارت العين الأولى والقاف الأولى لاماً في الكلمتين الثانية والثالثة "بلعك، وبلقع".

(١) مقاييس اللغة، ج١/ ص٣٣٢

(٢) انظر: قانون المخالفة الصوتية وأثره في نمو الثروة اللفظية للعربية الفصحى، ص٣٢.

(٣) مقاييس اللغة، ج١/ ص٣٣٣، ٣٣٤

ومن هنا يتضح أنه إذا كان ابن فارس ومن تبعه من علماء العرب القدامى يرى أن هذه الكلمات الرباعية تأتي من الثلاثي بزيادة حرف، فإن المحدثين يرون الأمر نفسه، لكن من الثلاثي المضعف العين عن طريق المخالفة الصوتية لأحد الصوتين المضعفين.

ثانياً: إبدال الأصوات المتوسطة:

١- التبادل بين اللام والنون:

وقد روى هذا التبادل عن القدماء، من ذلك "هَتَلَت السماء وهَتَنَت، والسدول والسدون: ما جلل، .... وعُلوان الكتاب وعُنوانه، وأبَّلْت الرجل وأبَّنْته: إذا أثنيتُ عليه بعد موته. ويقال: لأبِل ولأبِن، وإسماعيل وإسماعين، وإسرائيل واسرائين، وجبريل وجبرين، .... وأسود حالك وحانك"(١).

وجاء المعجم العربي "حافلاً بالكلمات التي تعاقبت فيها النون مع اللام، على الرغم من أن آخر ما يتوقع من أسباب هذا التحول هو الفرار من صعوبتهما، فهما من أيسر الأصوات نطقاً"(٢). وقد استشهدت الدكتورة آمنة صالح على ذلك بأمثلة كثيرة من لسان العرب، لابن منظور، بلغت ما يقرب من ثلاث صفحات(٣).

وهذا يعني أن التبادل هنا لا يرجع إلى السهولة والتيسير؛ والدليل على ذلك شيوع اللام عن النون في العربية الفصحى(٤)، وشيوع الصوت وكثرة استعماله تجعله عرضة للتغير، وحينما تتغير اللام فإن أقرب الأصوات منها هو النون، فاللام والنون متجانسان مخرجاً (لثويان)، ومتفقان جهراً، وهذا يسوغ التبادل بينهما.

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: للسيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٣، ج ١/ ص٥٦٥، ٥٦٦.

(٢) في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات في اللغة العربية واللغات السامية: د.آمنة صالح الزعبي، دار الكتاب الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ٢٠٠٥، ص١٦٧.

(٣) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٦٧-١٦٩.

(٤) انظر: الأصوات اللغوية: د.محمد علي الخولي، ص١١٧.

وينسب إبدال اللام نوناً في كلمتي إسرائين وجبرين إلى تميم وبنى أسد، قال أبو جعفر: لغة أهل الحجاز إسرائيل وجبريل، ولغة تميم وبنى أسد إسرائين وجبرين(١). فإذا قال قائل: مثل هاتين الكلمتين لا يعد إبدالا؛ لأنه يرجع إلى اختلاف البيئة الجغرافية؛ نقول: يمكن اعتبار مثل هاتين الكلمتين إبدالاً وفقاً لتعريف أبي الطيب اللغوي للإبدال، الذي يقول فيه: "ليس المراد بالإبدال أن العرب تتَعَمَّد تعويض حرف من حرف، وإنما هي لغاتٌ مختلفة لمعانٍ متفقةٍ، تتقارَبُ اللفظتان في لُغتين لمعنى واحد حتى لا يختلفا إلا في حرفٍ واحد"(٢).

وقد جاء مثل هذا التعاقب في اللغتين السريانية والعبرية، وإن كان قليلاً بالنظر إلى العربية، ففي اللغة السريانية: salmaa وهو الصنم في العربية، و zanzel بمعنى زلزل. وفي العبرية selem أى صنم أيضاً، وجاء فيها كلمتان بمعنى واحد، هما lihees بمعنى تمتم وسَحَر ورقى، و nihees بالمعنى نفسه أيضاً(٣).

ولعل السبب في كثرة هذا التبادل في العربية وقلته في اللغات السامية هو اهتمام علماء اللغة القدامى بجمع العربية الفصحى، وعدم مغادرتهم أي استعمال لغوي سمعوه عن العرب، زيادة على سعة الرقعة الجغرافية التي انتشرت فيها العربية، وطول عمرها، وهي أمور لم تتوافر للغات السامية الأخرى، ولا سيما أن أغلبها مات من الاستعمال الفعلي منذ زمن بعيد(٤).

٢- التبادل بين اللام والراء:

وقد روى هذا التبادل عن القدماء، من ذلك "هدر الحمامُ هديرا وهدلَ هديلا.

(١) انظر: إعراب القرآن: أبو جعفر النحاس، تحقيق زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط٢، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، جـ١ / ص٢١٧، ٢٥٠.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج١ / ص٤٦٠، ٤٦١

(٣) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٦٩- ١٧٠

(٤) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٧٠

وجَرَمه وجَلَمَه: قَطَعه، وسهم أمْرَط وأمْلط ليس له ريش.... وفرق الصبح لغة في فَلق، والوَجَل والوَجَر: الفَزَع، وخَلَقَ وخَرَق. واخْتَلَق واخْتَرَق سواء. ومُسْتَطير ومُسْتَطيل واحد..... ولَمَقْتُه ببصري مثل رَمَقْتُه"(١).

وقد جاء المعجم العربي حافلاً بالكلمات التي تعاقبت فيها الراء واللام. واستشهدت الدكتورة آمنة صالح على ذلك بأمثلة كثيرة من لسان العرب، لابن منظور، بلغت ما يقرب أيضاً من ثلاث صفحات(٢). ففي هذه الأمثلة حدث التعاقب بين اللام والراء، مما أدي إلى أن ينقلب أحدهما إلى الآخر، لأنهما متجانسان مخرجاً، متفقان جهراً، وهذا يسوغ التبادل بينهما، لكن "دون أن نخضع هذه العملية لقانون السهولة والتيسير، بل إن السر قد يكون في السمع أو المشابهة الصوتية"(٣).

وقد جاء هذا التغير الصوتي قليلاً في اللغات السامية الأخرى، مثل الأكادية، والآرامية والسريانية، والعبرية، ففي الأكادية piilu و piiru بمعنى فيل، وفي الآرامية والسريانية piilaa، والفعل (صبر) في العربية يقابله في العبرية saabal، وفي السريانية seebal، والفعل (بتر) في العربية يقابله في العبرية baatal و baatar(٤).

وترى الدكتورة آمنة صالح أن قلة هذه الأمثلة في اللغات السامية وكثرتها في العربية يرجع إلى طول عمر العربية، واتساع رقعتها الجغرافية، وعدم وجود كتاب مقدس لها في فترة مبكرة من فترات عمرها، في حين استُعملت العبرية والسريانية لكتابة نصوص مقدسة، وقد ساهم ذلك في الحد من هذا التحول، ويمكن أن ينسحب هذا على الأكادية والإثيوبية(٥).

(١) انظر لمزيد من الأمثلة: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج١ / ص٥٥٨، ٥٥٩

(٢) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٦٧-١٦٩

(٣) في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٧٠

(٤) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٧٣

(٥) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٧٣

٣- التبادل بين اللام والميم:

روي هذا التبادل عن العرب، من ذلك ما ذكره ابن منظور: "والمَأْزِمُ: المَضيق مِثْلُ المَأْزِل"(١)، و"الرُّؤَال والرُّؤَام اللُّعاب"(٢)، و"يُقَالُ: اسْتَوَلى عَلَى مَالِي أَي غَلَبني عَلَيْه، وَكَذَلِكَ اسْتَوْمى بِمَعْنَى اسْتَوْلَى، ومنه قولهم لَوْلا ولَوْ ما بِمَعْنَى هَلا، قَالَ الْفَرَّاءُ: ومنه قوله تَعَالَى: لَوْ مَا تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، وَقَالَ الأَصمعي: خالَمْتُه وخالَلْتُه إِذا صَادَقْتُهُ، وَهُوَ خِلّي وخِلْمِي"(٣). وقد جاء هذا الإبدال في اللهجات المصرية في كلمة امبارح، وربما سمعنا في بعضها: "انبارح"(٤)، وأصلها البارح أو البارحة(٥).

على أن هذا التبادل بين الميم واللام ورد أيضاً في اللغة العبرية، فقد جاء فيها paagam من الجذر pgm بمعنى أتلف وآذى، وجاء فيها pigguul بمعنى أُفسد(٦)، وفيها أيضاً gaaheelet وهي الجمر الشديد الاشتعال، والجاحم في العربية كذلك(٧).

ويسوغ هذا التبادل الصوتي بين اللام والميم أنهما من الأصوات المتوسطة المتقاربة مخرجاً وصفة، إذ اللام لثوية، والميم شفوية، و يشتركان في الجهر والتوسط.

(١) لسان العرب، أزم، مج١٢/ ص١٧

(٢) لسان العرب، رأل، مج ١١/ ص٢٦٢

(٣) لسان العرب، ولي، مج ١٥/ ص٤١٣

(٤) انظر: في التطور اللغوي: د.عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٩١م، ص٦٥.

(٥) إبدال لام التعريف ميماً لهجة قديمة تسمى الطمطمانية. وتنسب إلى طيء والأزد وحمير من اليمن، نحو: طاب أمْهَوَاء: أي طاب الهواء. انظر: في اللهجات العربية القديمة: د.إبراهيم السامرائي، ط١، ١٩٩٤م، ص٨٣

(٦) انظر: A Hebrew & English lexicon of the old testament, Gesenius,w., Translated by Brown, Driver & Briggs, Clarendon Press, Oxford,1979,p.803 .

(٧) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٧٦، ويقال للنار جاحم أي توقد والتهاب، والجاحم: المكان الشديد الحرّ، انظر: لسان العرب، جحم، مج ١٢/ ص٨٤

ولعل هذا التبادل قد مر بمرحلة وسطى على طريق التغير اللغوي، حيث أبدلت اللام نوناً في بداية الأمر، ويشهد الواقع اللغوي بإمكانية هذا التبادل في بعض اللهجات المعاصرة من قولهم: انبارح. ثم أبدلت النون ميماً فصارت امبارح، وكذلك ما ذكره الدكتور إسماعيل عمايرة من أن أداة التعريف (أن) ما تزال مستعملة في لهجة جبل رازح في صعدة باليمن، وكذلك (أم) التي تستخدم على نطاق واسع في جنوب الجزيرة العربية(١). وهذا التبادل تسوغه القوانين الصوتية للتماثل الوصفي بين الصوتين في الأنفية والجهر.

٤- التبادل بين الراء والنون:

وقد روي هذا التبادل عن العرب، من ذلك: "يقال: الوُكور والوكون الواحد وكْر ووكْن"(٢). و"الأَحْراشُ والأَحْناشُ وَاحِدٌ، وَهِيَ هَوَامُّ الأَرض"(٣)، و"الضِّبْر والضِّبْن الإِبْط"(٤)، و"يُقَالُ لِلْعَنْكَبُوتِ الهَبُورُ والهَبُون"(٥)، و"الدُّهْدُنُّ، بِالضَّمِّ: مَعْنَاهُ الْبَاطِلُ؛.... وَقَالُوا دُهْدُرٌّ، بِالرَّاءِ"(٦). وهذا التعاقب أقل دوراناً في المعجم العربي من التعاقب بين اللام والراء، أو اللام والنون(٧).

والراء والنون صوتان لثويان، ويتفقان في الجهر والوضوح السمعي، وهذا يعني إمكانية التبادل بينهما، وربما يرجع هذا التبادل "بين هذين الصوتين إلى أخطاء السمع [نتيجة] التقارب في المخرج، مما يؤدي إلى تصور غير كامل للصوت"(٨).

(١)انظر: تطبيقات في المناهج اللغوية، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، ٢٠٠٠م، ص١٤٩

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج ١ / ص٥٤٧

(٣) لسان العرب، حشر، مج٤ / ص١٩١

(٤) لسان العرب، ضبر، مج٤ / ص٤٨٠

(٥) لسان العرب، هبر، مج٥ / ص٢٤٩

(٦) لسان العرب، دهدن، مج١٣ / ص١٦٣

(٧) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٧٣، ١٧٤

(٨) في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٧٣

وهذا التعاقب وارد أيضاً في السريانية، ففيها ترين teereen بمعنى العدد اثنين، وفي الآرامية teereen كالسريانية، وفي المنداعية trin، وفي السريانية والآرامية أيضاً bar بمعنى ابن، وفي العبرية taaman بمعنى طمر في العربية(١).

٥- التبادل بين الراء والميم:

جاء هذا التبادل عن العرب، من ذلك: "الطَّحُوم والطَّحُورُ الدَّفُوعُ. وَقَوْسٌ طَحُومٌ وطَحُورٌ بِمَعْنًى وَاحِدٍ"(٢). و"ذَهَبُوا قِذَّحْرةً وقِذَّحْمَةً، بِالرَّاءِ وَالْمِيمِ، إِذا ذَهَبُوا فِي كُلِّ وَجْهٍ"(٣). و"القَحْم: الْكَبِيرُ الْمُسنّ، وَقِيلَ: القَحْم فَوْقَ الْمُسِنِّ مِثْلَ القَحْرِ"(٤).

ويمكن التعليل للتبادل بين الراء والميم، فهما صوتان متقاربان مخرجاً وصفة، فالراء لثوية، والميم شفوية ثنائية، وهما يشتركان في الجهر والتوسط، وهذا يسوغ إمكانية التبادل بينهما.

وتعد أمثلة هذا التبادل قليلة في العربية؛ نظراً للتكرار الذي يشكل صعوبة في صوت الراء، ولأنَّ الراء أَدخل مخرجاً في ظهر اللسانِ قليلاً عن النون لانحرافه إلى اللام(٥).

وربما يقول قائل: لِمَ يقع التبادل كثيراً بين اللام والميم، في حين يقل التبادل بين الراء والميم، على الرغم من أن اللام أعمق الأصوات اللثوية مخرجاً؟ نقول: لأن اللام -وإن كانت أعمق الأصوات اللثوية مخرجاً- تبدو أكثر سهولة في النطق من الراء؛ لانمياز بصفة التكرارية، وهذه الصفة تتطلب جهداً عضليّاً أكثر من صفة الجانبية في اللام.

(١) في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٧٤

(٢) لسان العرب، طحم، مج ١٢/ ص٣٦٠

(٣) لسان العرب، قذحر،مج١٢/ ص٨٢ وقذحم، مج ١٢/ ص٤٧٣

(٤) لسان العرب، قحم،مج١٢/ ص٤٦٢

(٥) انظر: الأصول في النحو: أبو بكر ابن السراج، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان، بيروت، ج٣/ ص٤٠٠

٦- التبادل بين النون والميم:

وقد جاء هذا التبادل عن العرب، من ذلك: "الغَيْم والغَيْن: السحاب. ومِسْع ونِسْع ريح الشمال، وامْتُقع لونه وانْتُقع، والمَجَر والنَّجَر أن يكثر شرب الماء ولا يكاد يروى،.... والحزْن والحزْم: ما غلُظ من الأرض،.... وأسود قاتِم وقاتِن"(١). وبين الصوتين تقارب وصفي، فالنون والميم تتفقان في مجرى الهواء الأنفي، فهما الصوتان الأنفيان في العربية دون غيرهما، وتتفقان في الجهر، وهذا يسوغ إمكانية التبادل بينهما، وإن تباعدا مخرجاً.

على أن أمثلة التبادل بين الميم والنون كثيرة في العربية، على عكس اللغات السامية التي جاء فيها هذا التبادل بين الصوتين قليلاً، "فقد جاء في العبرية mee nimrim أي ماء نمير، ولعل الميم في آخره بدل من التنوين، وهو أمر مألوف، أو أنها علامة جمع، فقد اختارت الأكادية ظاهرة التمييم، مثل: kaasum أي كأس، وفي العبرية: yoomaam بمعنى نهاراً، والميم الثانية هي بقايا التمييم في العبرية الذي يقابل التنوين في العربية"(٢).

وقد ذكر الدكتور إسماعيل عمايرة أن الأكادية قد استعملت الميم بدلاً من النون في نظامها الصوتي، وكذلك العربية الجنوبية في مثل intim< بمعنى أنثى، وهو ما يقال عن الإثيوبية، ففيها temaalem، أي أمس، ومن بقاياه في العربية فم (فو) وابنم(٣). ويقابل الكلمة العربية (ذَنَب) في اللغة الأكادية zimbaatu, zibbaatu، فقد سقطت النون في الكلمة الأولى، وعوض عنها بتشديد الباء، والأصل zinbaatu،

(١) انظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج ١/ص٤٦٨

(٢) في علم الأصوات المقارن-التغير التاريخي للأصوات، ص١٧٦، وانظر:

A Hebrew & English lexicon of the old testament, p.649

فقه اللغات السامية، ص٥١، تطبيقات في المناهج اللغوية، ص١٤٨.

(٣) انظر: تطبيقات في المناهج اللغوية:، ص١٤٨

وأما الكلمة الثانية فقد تحولت هذه النون إلى ميم، وفي العبرية daaseen بمعنى سمن، وهي تقابل كلمة دَسِمَ في العربية(١).

٧- التبادل بين النون والفاء:

من ذلك: "قَالَ أَبو الْهَيْثَمِ: يُقَالُ قَبَضْتُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَفِصْ وَلَمْ يَنْزُ وَلَمْ يَنُصْ بِمَعْنًى وَاحِدٍ"(٢)، أي لم تنفرج أصابع الصائد عن الضب، فلم يستطع أن يخلص ذيله منه. "وَفِي حَدِيثِ النَّجَاشِيِّ: هَلْ تَنَشَّغَ فِيكُمُ الوَلَدُ؟ أَي اتَّسَعَ وكَثُرَ....، وَالْمَشْهُورُ تَفَشَّغَ بِالْفَاءِ"(٣). و"فُلانٌ فُضاضةُ وَلَدِ أَبيه أَي آخِرُهُمْ؛ قَالَ أَبو مَنْصُورٍ: وَالْمَعْرُوفُ فُلانٌ نُضاضةُ بِالنُّونِ، بِهَذَا الْمَعْنَى"(٤).

ونظراً لتباعد صوتي النون والفاء مخرجاً، واختلافهما صفة، لا نجد مسوغاً لهذا الإبدال. ولعل ذلك هو السبب في قلة الأمثلة على هذا الإبدال؛ لأنه إبدال غير مرغوب فيه في العربية، ولم تلجأ إليه اللغات السامية، فلم يعثر له على أمثلة فيها كما ذكرت الدكتورة آمنة صالح(٥).

٨- التبادل بين الميم والباء:

من ذلك: "الخَرْبَشةُ والخَرْمَشة: الإفساد والتشويش"(٦)، ومكة وبكة(٧)، و"جَرْجَمَ الطعامَ: أَكله، عَلَى البَدَل مِنْ جَرجَب"(٨)، وقد روى السيوطي أمثلة

(١) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات في اللغة العربية واللغات السامية، ص١٤٨، ١٤٩، و A Hebrew & English lexicon of the old testament, p.206

(٢) لسان العرب، فوص مج٧/ ص٦٨

(٣) لسان العرب، نشغ مج٨/ ص٤٥٦

(٤) لسان العرب، فضض مج٧/ ص٢٠٩، وانظر: تهذيب اللغة، تحقيق محمد أبو الفضل، ج١١/ ص٤٧٥

(٥) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص ١٤١

(٦) لسان العرب، خرمش، مج٦/ ص٢٩٥

(٧) انظر: لسان العرب، بكك، مج١٠/ ص٤٠٢

(٨) لسان العرب، جرجم، مج١٢/ ص٩٦

كثيرة لإبدال الباء ميماً، منها "الربا والرما....، والرُّجْبة والرُّجْمة: ما تُعْمَد به النخلة لئلا تقع....، وضربة لازِب ولازم....، وعَجْب الذنَب وعَجْمه، وأسود غَيْهَب وغَيْهَم، وأزمة وأزبة وهي الشِّدّة والضيق، والقَرْهب والقَرْهَم: السيد"(١).

والأمثلة على هذا النوع من التبادل بين الصوتين كثيرة في العربية، ولا يمكن أن يصل التبادل بينهما "إلى المدى المطلق، فمن الممكن أن تتغير الباء إلى الميم، والميم إلى الباء، والحكم بالأصالة على أحد النمطين، والفرعية على الآخر ربما لا يكون قاطعاً، وإنما يستند إلى قضية تداولية براجماتية، وهي كثرة الاستعمال في الغالب"(٢).

ويمكن تفسير التبادل بين الميم والباء، فهما متجانسان مخرجاً؛ أي شفويان ثنائيان، ومتفقان جهراً، ويكمن الخلاف بينهما في أن الباء انفجاري، والميم صوت أنفي.

وقد جاء هذا التعاقب بين الميم والباء في اللغات السامية، وإن كانت الأمثلة التي تسجلها المعاجم السامية ليست كثيرة، وهذا يؤكد أن هذا الإبدال ليس ناتجاً عن ميل اللغة إلى التخلص من أحد هذين الصوتين. ففي العبرية zaarab بمعنى جرى وسال، وفيها أيضاً zaaram بالمعنى نفسه. وجاء في السريانية zaamuuraa بمعنى زبور(٣).

٩- التبادل بين الميم والفاء:

من ذلك: قال "الأصمعي: الجَمْخُ والجَفْخُ الكِبْر"(٤)، و"موت زؤاف وزؤام:

(١) انظر لمزيد من الأمثلة: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج ١/ ص٤٦٣، ٤٦٤.

(٢) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٣٩، ١٤٠

(٣) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٤٠، و-A Hebrew & English lex icon of the old testament, p.279، وLexicon syriacum, halis saxonum, Brockelmann,C., 1928, p.200

(٤) لسان العرب، جَفَخَ مج٣/ ص١٢، وتهذيب اللغة، تحقيق د.عبد السلام سرحان، ج٧/ ص٧١

كريه"(١)، و"الغَسَمُ: السَّوَادُ كالغَسَف؛ عَنْ كُرَاع"(٢)، "والأَقْصَفُ: لُغَةٌ فِي الأَقْصَم، وَهُوَ الَّذِي انْكَسَرَتْ ثَنِيّته مِنَ النِّصْفِ"(٣)، "وانْفَلَصَ مِنِّي الأَمرُ وانْمَلَصَ إِذا أَفْلَت، وَقَدْ فَلَّصْته وملَّصْته بمعنى واحد"(٤).

وبين الميم والفاء قرابة صوتية، فهما متجاوران محرجاً، بل يشتركان في جزء من المخرج، وهو الشفة السفلى، وهذا التقارب المخرجي مسوغ للتبادل بينهما.

وقد اشتركت العبرية مع العربية في هذا التبادل، وإن كان هذا الاشتراك ضئيلاً؛ لأن هذه اللغة قد حافظت على صوتي الميم والفاء ضمن نظامها الصوتي، فقد جاء فيها niflat وnimlat بمعنى أفلت ونجا وتخلص، والثلاثي المجرد من هذين الفعلين غير مستعمل في العبرية(٥).

ملاحظة على الإبدال:

يبدو أن الحكم بالأصالة على إحدى الصور اللفظية، والفرعية على الأخرى ربما لا يكون قاطعاً؛ لأنه يستند إلى قضية تداولية براجماتية، وهي كثرة الاستعمال، وربما يرجع تعدد الصور اللفظية أيضاً إلى اختلاف البيئات اللغوية، أو إلى بيئة لغوية واحدة ولكن في جيلين مختلفين من أبناء هذه البيئة، فهل يعد التعدد في الحالتين الأخيرتين من الإبدال؟ نقول: إنْ رجع تعدد الصور اللفظية إلى اختلاف البيئات اللغوية، فيمكن عده إبدالاً على رأي أبي الطيب اللغوي الذي يقول: "ليس المراد بالإبدال أن العرب تتَعَمَّد تعويض حرف من حرف، وإنما هي لغاتٌ

(١) لسان العرب، زأف مج٩/ص١٢٩، وانظر: تهذيب اللغة، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، ج١٣/ص٢٦٥.

(٢) لسان العرب، غسم مج١٢/ ص٤٣٧

(٣) لسان العرب، قصف مج٩/ ص٢٨٣

(٤) لسان العرب، فلص مج٧/ ص٦٧

(٥) انظر: في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات، ص١٤١، و A Hebrew & English lexicon of the old testament, p.812,572

مختلفة لمعانٍ متفقةٍ، تتقارَبُ اللفظتان في لُغتين لمعنى واحد حتى لا يختلفا إلا في حرفٍ واحد"(١) كما سبق لا على رأي المحدثين، وإنْ رجع إلى بيئة لغوية واحدة ولكن في جيلين مختلفين من أبناء هذه البيئة، فيعد ذلك إبدالاً دون خلاف. وفي كلٍّ يؤدي ذلك إلى نمو الثروة اللفظية في العربية الفصحى. وربما يصدر الإبدال الذي يرجع إلى اختلاف اللغات عن قبيلة واحدة، والدليل على ذلك قول "ابن السكيت: حضرني أعرابيان من بني كلاب، فقال أحدهما: إِنْفَحَة، وقال الآخر: مِنْفَحة، ثم افترقا على أن يسألا جماعة من أشياخ بني كلاب فاتفق جماعة على قول ذا وجماعة على قول ذا. وهما لغتان"(٢).

خاتمة البحث

تناول هذا البحث دراسة الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة عند علماء العرب القدامى والمحدثين. وقد تبين لنا من خلال هذه الدراسة ما يلي:

١- يعني مفهوم التوسط عند علماء العربية القدامى توسط هذه الأصوات بين الشديدة (الوقفات) والرخوة (الاحتكاكيات)، لاتسامها بالوقفة عند المخرج، وخروج الهواء متزامناً معها حرّاً طليقاً. وهذا المفهوم للتوسط يعني أنه قسمٌ مستقلٌ من الأصوات الصامتة مناظر لكل من الأصوات الشديدة والرخوة. وثمة مفهوم آخر له عند المحدثين وهو التوسط بين الصوامت والحركات، ويضم الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة، مضافاً إليها الواو والياء باعتبارهما نصف حركة أو نصف صامت، والأولى اعتبارهما قسماً مستقلاً من الأصوات يطلق عليه أشباه الحركات؛ حتى يتم ضبط مصطلح التوسط.

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج١/ ص٤٦٠، ٤٦١.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج١/ ص٤٧٥.

٢- تسمية القدماء للنون وأخواتها بالأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة تسمية موفقة؛ لأنها ليست من الأصوات الشديدة التي تتسم بالوقفة والانفجار، وليست من الأصوات الرخوة التي تتسم بالحفيف، وإنما هي صنف مستقل بينهما. وقد كان القدماء على صواب في فصلها عن باقي حروف الهجاء العربية واختصاصها بصفات معينة، وإن لم يوضحوا لنا كل خصائصها، ودورها في تطور النطق وتطور الصيغ.

٣- يعد السيوطي هو أول من ذكر مصطلح المتوسطة نصاً، ولعل وَصْف سيبويه لها بأنها بين الشديدة والرخوة هو ما دفع علماء العربية إلى تسميتها بعدُ بالأصوات المتوسطة، أو نعتها بالأصوات البينية.

٤- الأصوات المتوسطة التي تحققت في نطقها المعايير الضمنية التي أشار إليها سيبويه هي باتفاق الجميع أربعة: اللام والنون والميم والراء، بعد نزع العين والواو والياء والألف من هذا القبيل؛ لانتفاء معيار التوسط في نطقها، وهو اتسام نطق الصوت المتوسط بالشدة (الوقفة) وبالرخاوة المتزامنة في مرور الهواء بصورة من الصور من منافذ معينة، لأن هذه الأصوات الأربعة الأخيرة لا تتسم بالوقفة، فالعين احتكاكية، والواو والياء في عبارات القدامى حركات طويلة في بعضها، وأنصاف حركات أو أنصاف صوامت في بعضها الآخر. أما الألف فإنها فتحة طويلة لا غير.

٥- لا تعد الواو والياء من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة، وإن كانتا متوسطتين بين الصوامت والحركات، وثمة خاصية مشتركة بينهما وبين الأصوات المتوسطة، وهي قوة الوضوح السمعي في كلٍّ، وهو ما يقربهما من هذه الأصوات.

٦- تشكل الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة (اللام والنون والميم والراء) ثلثي أصوات الذلاقة (مر بنفل)، فالعلاقة بينهما علاقة الجزء بالكل، وعلى ذلك فكل صوتٍ متوسطٍ هو صوت مذلقٌ، وليس كل صوت مذلق صوتاً متوسطاً.

٧- يراد بالأصوات المتوسطة عند المحدثين في الغرب الأصوات المركبة -af fricates، التي تبدأ انفجارية وتنتهي احتكاكية مثل صوت الجيم في العربية الفصحى. وهذه تغاير الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة عند علماء العرب القدامى والمحدثين، إذ اتفقوا على أصوات أربعة متوسطة بين الشدة والرخاوة، وهي اللام، والنون والميم، والراء، وانفرد القدماء بزيادة الواو والياء والألف، ووافقهم د.تمام حسان ود.عبد الصبور شاهين ود.سعد مصلوح في الواو والياء دون الألف.

٨- أكثر أنواع الراء تردداً في العربية هي الراء المستلة، وهي ترد في أي موقع من الكلمة؛ أولها ووسطها وآخرها متلوة بحركة، في حين ترد الراء المكررة بشكل منتظم غير متبوعة بحركة، ويتحقق ذلك في المقاطع الآتية: (ص ح ص) و(ص ح ح ص) و(ص ح ص ص) و (ص ح ح ص ص)؛ فهي إما آخر المقطعين الأول والثاني، وإما قبل آخر المقطع الثالث متلوة بصوت صامت، وإما قبل آخر الرابع متلوةً بصامت هو راء أخرى.

٩- أقل الأصوات المتوسطة تأثراً بغيره من الأصوات التي تأتي بعده صوت الميم، يليه الراء. وأكثرها تأثراً بما بعدها النون واللام.

١٠- للأصوات المتوسطة دور كبير في نشأة الكلمات الرباعية من خلال المخالفة بين المتماثلين، وهي أكثر الأصوات استخداماً في نشوئها؛ خاصة الصامتين اللثويين؛ الترددي والأنفي، فأكثر الصوامت المتوسطة وروداً من حيث نسب استعمالها في تحقيق المخالفة، الراء تليها النون ثم اللام فالميم.

١١- ترتبط المخالفة بالأصوات المتوسطة بطبيعة التشكيل الصوتي للكلمة؛ فتميل اللغة إلى استخدام أحد الأصوات المتوسطة أو أنصاف الحركات بديلاً لأحد الصامتين المتماثلين، إلا إذا كان الصامت المضعف نفسه واحداً من أصوات هاتين

المجموعتين، أو مجاوراً لأحدها، فتكون المخالفة من غيرهما.

١٢- يقع الإبدال بين الأصوات المتوسطة في العربية الفصحى؛ فاللام تتبادل مع النون والراء والميم، والراء تتبادل مع النون والميم، والنون تتبادل مع الميم والفاء، والميم تتبادل مع الباء والفاء. وهذا التبادل موجود في اللغات السامية، باستثناء التبادل بين الراء والميم، والتبادل بين النون والفاء. ولا يزال كثير من هذا التبادل موجوداً في اللهجات العربية المعاصرة.

١٣- يتم ثراء الصيغ المعجمية في العربية وأبنيتها بطرق متنوعة؛ منها: المخالفة الصوتية، والإبدال الصوتي الحر بين الأصوات المتجانسة أو المتقاربة.

المصادر والمراجع

١- أسرار العربية: الأنباري، تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق.

٢- أسس علم اللغة: ماريو باي، ترجمة وتعليق أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط٨، ١٩٩٨م.

٣- الأصوات العربية: د.كمال بشر، مكتبة الشاب، القاهرة.

٤- أصوات اللغة: د.عبد الرحمن أيوب، ،ط٢، مطبعة الكيلاني، ١٩٦٨م.

٥- الأصوات اللغوية: د.إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠م.

٦- الأصوات اللغوية: د.محمد علي الخولي، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمَّان، ١٩٩٠م.

٧- الأصوات المتوسطة والأصوات الذلق رأي في المفهوم وبيان للخواص: د.كمال بشر، مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد٢٥، يوليو ١٩٩٦م.

٨- الأصول في النحو: ابن السراج، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٩- بحوث ومقالات في اللغة: د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٥م.

١٠- تاج العروس من جواهر القاموس: للزبيدي، مطبعة حكومة الكويت، الجزء٧، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢ مصورة، ١٩٩٤م، والجزء٢٩ تحقيق د.عبد الفتاح الحلو، ١٩٩٧م.

١١- التحديد في الإتقان والتجويد: أبو عمرو الداني، تحقيق: الدكتور غانم قدوري حمد، مكتبة دار الأنبار، بغداد، ط١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٨م.

١٢- تطبيقات في المناهج اللغوية: د.إسماعيل عمايرة، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، ٢٠٠٠م.

١٣- التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه: د.رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥م.

١٤- التطور النحوي للغة العربية: برجشتراسر، أخرجه وصححه وعلق عليه د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

١٥- التمهيد في علم التجويد: لابن الجزري، تحقيق: الدكتور على حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

١٦- تهذيب اللغة: للأزهري، الدار المصرية للتأليف والترجمة،١٣٨٤ه- ١٩٦٤م، الجزء ١ تحقيق: عبد السلام هارون، والجزء ٧ تحقيق د.عبد السلام سرحان، والجزء ١١ تحقيق محمد أبو الفضل، والجزء ١٣ تحقيق أحمد عبدالعليم البردوني.

١٧- جمهرة اللغة: لابن دريد ، تحقيق رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت،ط١، ١٩٨٧م.

١٨- دراسات في علم اللغة: د.كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.

١٩- دراسة السمع والكلام: د.سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠م.

٢٠- دراسة الصوت اللغوي: د.أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٤١٨هـ-١٩٨٧م.

٢١- دروس في علم أصوات العربية: جان كانتينو، نقله إلى العربية صالح القرمادي، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية، ١٩٦٦م.

٢٢- الراء في العربية دراسة صوتية: د.إدوارد حنا، مقال نشر بمجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، الرباط، المملكة المغربية، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٢٣- سر صناعة الإعراب :لابن جني، تحقيق د.حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٥م.

٢٤- سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٢٥- شرح شافية ابن الحاجب: رضي الدين الإستراباذي ، مع شرح شواهده لعبدالقادر البغدادي، حققهما، وضبط غريبهما، وشرح مبهمهما، محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

٢٦- ظاهرة المخالفة الصوتية ودورها في نمو المعجم العربي: د.أحمد هريدي، مكتبة الزهراء.

٢٧- علم الأصوات: برتيل مالمبرج، تعريب عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة١٩٨٥م.

٢٨- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي :د.محمود السعران،دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م.

٢٩- فقه اللغات السامية: كارل بروكلمان، ترجمة د.رمضان عبد التواب، جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.

٣٠- في علم الأصوات المقارن- التغير التاريخي للأصوات في اللغة العربية واللغات السامية: د.آمنة صالح الزعبي، دار الكتاب الثقافي، إربد، الأردن، ٢٠٠٥.

٣١- قانون المخالفة الصوتية وأثره في نمو الثروة اللفظية للعربية الفصحى: د.سامر زهير بحرة، بحث منشور بمجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات، المجلد ٣٢، العدد٣، ٢٠١٠م.

٣٢- الكتاب: سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط٣، ١٩٨٨م.

٣٣- كتاب علم الأصوات: د.فريد حيدر، المطبعة المركزية بجامعة الفيوم، ٢٠١٠م.

٣٤- كتاب العين: الخليل بن أحمد، تحقيق: د.مهدي المخزومي، ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة.

٣٥- لحن العوام: للزبيدي، تحقيق د.رمضان عبد التواب، القاهرة، ١٩٦٤م.

٣٦- لسان العرب: لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ- ١٩٩٥م.

٣٧- اللغة: فندريس، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو، ١٩٥٠م.

٣٨- اللغة وعلم اللغة: جون ليونز، ترجمة مصطفى التوني، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٧م.

٣٩- مبادئ علم الأصوات العام: ديفيد كرومبي، ترجمة وتعليق د.محمد فتيح، ط١، ١٩٨٨م.

٤٠- المدخل إلى علم الأصوات دراسة مقارنة: د.صلاح الدين صالح حسنين، دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٨١م.

٤١- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٤٢- المزهر في علوم اللغة وأنواعها: للسيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٣.

٤٣- المغرب في ترتيب المعرب: برهان الدين الخوارزمي المُطَرِّزِيّ، تحقيق محمود

فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط١، ١٩٧٩م.

٤٤- مقاييس اللغة: ابن فارس، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.

٤٥- الممتع الكبير في التصريف: لابن عصفور الإشبيلي، تحقيق د.فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ١٩٩٦م.

٤٦- مناهج البحث في اللغة: د.تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠م.

٤٧- النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، أشرف على تصحيحه ومراجعته علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية.

٤٨- نشوء الفعل الرباعي في اللغة العربية: د.أحمد هريدي، مكتبة الزهراء، القاهرة ١٩٨٨م.

٤٩- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: للسيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

50- A Hebrew & English lexicon of the old testament, Gesenius, w., Translated by Brown, Driver & Briggs, Clarendon press, Oxford, 1979.

51- An outline of English Phonetics, Jones, D., University press, Cambridge, Eighth printing 1987.

52- Lexicon syriacum, halis saxonum, Brockelmann,C., 1928.